مكتبة الأسرة 1999

مهرجان القراءة للجميع

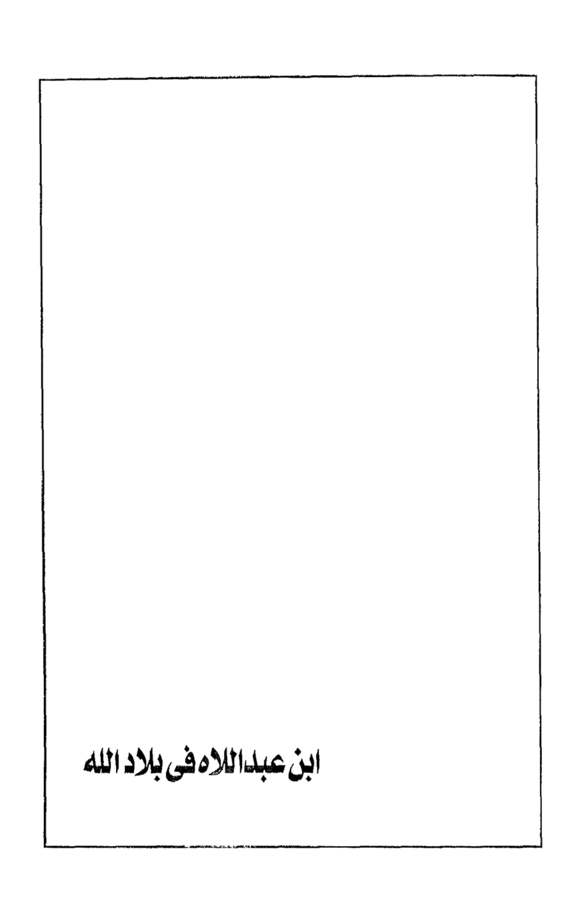
الاعمال الخاصة

ابن عبد اللاه في بلاد الله



محمد عبد اللاه

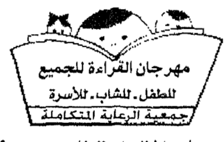
(الجزء الثاني من رحلات ابن عبد اللاه)



ابن عبد اللاه فى بلاد الله

ابن عبداللاه
فى بلاد الله

محمد عبداللاه



مهرجان القراءة للجميع ٩٩

مكتبة الأسرة

برعاية السيدة سوزان مبارك

(سلسلة الأعمال الخاصة)

ابن عبداللاه فى بلاد الله

محمد عبداللاه

الجهات المشاركة:

جمعية الرعاية المتكاملة المركزية

وزارة الثقافة

وزارة الإعلام

وزارة التعليم

وزارة التنمية الريفية

المجلس الأعلى للشباب والرياضة

التنفيذ : هيئة الكتاب

الغلاف

والإشراف الفنى:

الفنان: محمود الهندى

المشرف العام:

د. سمير سرحان

على سبيل التقديم

وتمضى قافلة «مكتبة الأسرة» طموحة منتصرة كل عام، وها هى تصدر لعامها السادس على التوالى برعاية كريمة من السيدة سوزان مبارك تحمل دائمًا كل ما يثرى الفكر والوجدان ... عام جديد ودورة جديدة واستمرار لإصدار روائع أعمال المعرفة الإنسانية العربية والعالمية فى تسع سلاسل فكرية وعلمية وإبداعية ودينية ومكتبة خاصة بالشباب. تطبع فى ملايين النسخ التى يتلقفها شبابنا صباح كل يوم .. ومشروع جيل تقوده السيدة العظيمة سوزان مبارك التى تعمل ليل نهار من أجل مصر الأجمل والأروع والأعظم.

د. سمير سرحان

الإهـــداء

إلـى الســـيـــدة الـتـى وقـفـت فـى مـفـتــرق الـطـرق الـوعــرة واخـتـارت...

إلـى مـن اخـتــارت أن تـسـنـدنا ـ أطـفـالا ونـســاء ورجـالا ـ فـى مـعـركـة المـصـائـر...

إلـى مـن تـسـتـحـق ـ بـما اخـتـارت ـ إهـداء ألـف كـتـاب...

إلـى سـوزان مـبـارك.

ابـن عـبـد الـلاه

مقـــدمة

الرحالة فى مثل حالتى رجل بثلاثة عيون...

عينان للصحفى - كأى صحفى آخر - والثالثة للرحلات. وهذه العين الإضافية أراها كافية للإحساس بالناس، وتذوقهم، وتفهم ظروفهم بعد اكتشافها، وربما قبل اكتشافها!

وهذه العين الإضافية كافية أيضا - فيما أرى - للتضامن مع الناس من كل عرق، ولون، وجنس، وملة ودين، ومع من لا دين لهم ولا ملة!

فالرحالة كناقل الكفر... ليس بكافر.

بل إنه مؤمن مادام ينقل أحوال الناس، بعد أن يتحراها فى أركان الدنيا الأربعة، أو ما استطاع إليه سبيلا منها. فإذا طاف بالأرض، وبعقول ونفوس ودخائل أهلها بعينه المضافة، فلا بد أنه سيتخذ إلى عقلك وقلبك ونفسك طريقا حين يكتب.

وما لم يتضامن الرحالة مع الناس فسيبقى بعيدا عنهم، واقفا خارج محيط دائرتهم، ولن يقنعك مهما يكتب، ولن يصل إلى قلبك مهما يدعى أنه ارتحل ورأى وسمع.

ولولا شعورى بأننى حققت هذه المعادلة من قبل ما جرؤت على وصف نفسى بكلمة «الرحالة» التى تصدرت هذه المقدمة. فقد أكد النقاد - مصداقا لشعورى - أننى حققتها - شكرا لله وامتناننا - فى

كتابى «رحلات ابن عبداللاه». وأسرعت من فرحى إلى تأليف هذا الكتاب، راجيا أن يكون جزءا ثانيا فى سلسلة.

فكيف اتفق النقاد على أننى حققت المعادلة التى أتحدث عنها؟

كان ذلك فى ثلاثة اتجاهات:

الأول - قال النقاد إن كتاب «رحلات ابن عبداللاه» ينتمى إلى أدب الرحلات، وقد استقبلوه بحماس وإعجاب، باعتبار أن الكتابة الحقيقية فى هذا اللون من الأدب قليلة، بل نادرة.

الثانى - النقاد أنفسهم خلعوا علىّ هذا الوصف، وقد أحببته. فالرحالة الأديب الكاتب الكبير أنيس منصور أهدانى آخر كتبه «كل معانى الحب» قائلا - أو كاتبا على غلافه الداخلى - إلى الرحالة الأديب.... فلان.

الثالث - من الأساتذة الصحفيين الكبار من اعترف لى بالعين الإضافية التى أشرت إليها، فأستاذى الصحفى المخضرم، الذى جاب العالم محمد مصطفى غنيم، كتب فى يومياته بصحيفة «الأخبار» يقول إنه استغرق فى قراءة الكتاب إلى درجة أنه تمنى أن يزور مرة ثانية، أو ثالثة، الدول التى كتبت منها عن أحوال الناس فى «رحلات ابن عبداللاه».

والزميل الكبير الأستاذ جلال السيد مدير تحرير «الأخبار» كتب يقول إنه زار دولا أكثر بكثير من الدول التى سجلت منها وقائع الكتاب، وإن وقائع كثيرة مماثلة مرت به دون أن يسجلها، بل ربما دون

أن يلتفت إليها.

أما أستاذى الكاتب الكبير محمد العزبى فقد استنتج - من كتاب الرحلات الأول - فى مقال بجريدة «الجمهورية» أننى أقف فى مركز دائرة الناس، وأننى أمد إليهم يدىّ مفتوحتين بحق، فقد كتب يقول:

«حرص محمد عبداللاه على أن يأخذ قارئه فى يده وهو يتنقل من بلد إلى بلد، يصف له ما يراه، ويكشف له عن مشاعره، يحدثه فى السياسة وفى السياحة، ويهتم كثيرا بالبشر. سافر محمد عبداللاه إلى بلاد كثيرة فى رحلات عمل حرص على أن يستمتع فيها بأيامه ولياليه، واختار أن يعاكس الصبيان والبنات لكى يصل إلى جوهر حقيقة الإنسان فى شتى الأقطار».

وعن الشق الثانى من المعادلة كتب الناقد والصحفى الشاب البارز سليمان جُودة فى جريدة «الوفد» يقول: «عنوان هذا الكتاب يختصر نصف الطريق إليك، ويتكفل الغلاف ومذاق المحتوى بالنصف الباقى، فلا يبقى بعد ذلك إلا أن تمد يدك وتتناول الكتاب، وتمارس فعل القراءة، متنقلا بين سبع دول... من اليابان إلى لبنان».

***

وبكل الحب أقدم إليك أيها القارىء العزيز هذا الكتاب الجديد، وبكل الثقة أنتظر أن ينال منك الإعجاب، وبكل الشكر أتقدم إلى مكتبة الأسرة التى تتولى إصداره.

محمد عبداللاه

هـذا الـكـتـاب

.... إن هذا الذى كتبته عن باريس قبل أن أراها ما هو إلا كلام أديب مفتون ببطلة قصة يتفتق عنها خياله. وهو ليس كلام تجربة، أو معايشة، أو مشاهدة. إنه حلم وردى بمستقبل عظيم مع محبوبة شقراء لم ينسدل بعد على كتفى هذا الأديب - أو كتفى بطل قصته - شعرها الأصفر الناعم الجميل.

دقيقة، أو بعض دقيقة، ووجدت نفسى واقفا فى أحد ٣ طوابير أمام مائدة الاستقبال حيث تدوين بيانات جوازات السفر، واستلام مفاتيح الغرف.

وأنا أمام الموظفة طالعت وجها غير مريح لآنسة بدت لى خشنة. ولما سمعتها تقول: «نعم يا سيدى» باللغة الفرنسية التى لا أعرف منها الكثير، وجدت صوتها من النوع الأجش، فأخذتنى الدهشة وأنا أسمع هذا الصوت، وكذلك وأنا أرى هذا الوجه...

... وأين؟ فى باريس؟!

الفصل الأول

في فرنسا

- عندك منبه فى الهاتف، اطلب رقم ١٢٣ وقل إنك تريد أن تستيقظ فى الساعة التى تشاء.

- شكرا لك.

قالت من تحت طرف لسانها:

- مغسيه...

.... أى شكرا بالفرنسية.

قلت فى بالى: يا فتاح يا عليم!.

باريــــس......
شـقـراء وأديـب!

- أمامك ٣ طرق للوصول إلى كوناكرى.
- ما هى يا أستاذ عبد الحى؟

***

الذى أسأله هو زميلى عبدالحى خليل موظف العلاقات العامة فى الأهرام». أما الطرق الـ ٣ المعروضة علىّ فهى:

□ القاهرة ـ باريس ـ كوناكرى.

□ القاهرة ـ الدار البيضاء ـ كوناكرى.

□ القاهرة ـ أبيدجان (عاصمة ساحل العاج) ـ كوناكرى.

قلت:

- الثالث مرفوض، والثانى مرغوب فيه، والأول ممكن.

فمنذ زمن أريد أن أزور المغرب التى يقول زملائى إنها مضيافة، وتحب مصر والمصريين حبا جما.

قال عبدالحى بتلقائية ظريفة عهدتها فيه:

- على الله... ننزل السوق ثم نرى.

وكنت أعرف أن السوق التى ينزلها عبدالحى ـ بنفسه أو بالهاتف ـ هى شركات الطيران المصرية والعربية والأجنبية.

وفى آخر النهار اتصل بى قائلا:

– حظك حلو، الطريق الأول مفتوح أمامك، فى الوقت الذى تريده.

وأضاف، تأكيدا لما يقول:

– القاهرة ـ باريس ـ كوناكرى، والعودة أيضا فى هذا الطريق.

– شكرا يا أستاذ عبدالحى.

– ترجع بألف سلامة، وغدا تستلم التذكرة.

***

ماذا يكون شعورك وأنت فى الطريق إلى باريس أول مرة؟

قد تقول: حدثنا أنت عن شعورك!

عندك حق، وإليك ما كتبته فى مفكرتى كما هو، وقد كتبته وأنا فى الطائرة، وهى رابضة بمطار القاهرة، وكذلك وهى تطير، ثم وهى تستعد للهبوط فى مطار شارل ديجول بباريس.

الوقت المحدد لإقلاع الطائرة الساعة الثامنة صباح اليوم ٧ يونيو ١٩٩٧. فى الثامنة تماما أعلن قائد الطائرة أنها

تستعد للإقلاع. وفى الثامنة والربع دارت محركاتها بقوة فى طريقها إلى الطيران، وأنا أقول فى سرى: الحمد لله رب العالمين، الرحمن الرحيم، ملك يوم الدين، إياك نعبد وإياك نستعين...... صدق الله العظيم.

قبل الثانية عشرة ظهرا بتوقيت القاهرة (الحادية عشرة صباحا بتوقيت باريس) أفقت من نوم متقطع، وطلبت كوبا من القهوة الأمريكية، ولما شربته شعرت بانتعاش... وكذلك بحنين يسرى فى جسمى لباريس. وفوق لسانى قفزت هذه العبارة: « املأ من باريس عينيك، إنها امرأة جميلة، صافحها، وإن أذنت قبّلها، وإن دعتك للرقص لا تمانع ».

***

إن هذا الذى كتبته عن باريس قبل أن أراها ما هو إلا كلام أديب مفتون ببطلة قصة يتفتق عنها خياله، وهو ليس كلام تجربة، أو

معايشة، أو مشاهدة. إنه حلم وردى بمستقبل عظيم مع محبوبة شقراء لم ينسدل بعد على كتفى هذا الأديب ـ أو كتفى بطل قصته ـ شعرها الأصفر الناعم الجميل.

***

أمام أحد مخارج مطار شارل ديجول ركبت أتوبيسا إلى فندق فى المطار نفسه. فالمقدر أن أقضى ما بقى من النهار ـ والليل ـ فى باريس، وأن أسافر إلى كوناكرى فجرا، وأن تهبط بى الطائرة (فى الطريق) فى باماكو عاصمة مالى، ثم أخيرا فى عاصمة غينيا، لكى أسافر منها إلى فريتاون عاصمة سيراليون... إن استطعت إليها سبيلا، ففيها تتفشى المعارك العشوائية والإجرامية على حساب المدنيين الأبرياء، من الأجانب والمواطنين.

وفى الأتوبيس وقفت أتأمل عاصمة النور التى أراها أول مرة، وجلت ببصرى فإذا أنا أمام ضخامة واتساع غير عاديين: فى المبانى وساحات الانتظار والحدائق. وأخذت الانطباع الأول، وهو أن المعروف (أو المعروفة) بالرشاقة يجب أن يفارق (أو تفارق) الضخامة والبدانة. وما أعرفه ـ أو أتصوره ـ عن باريس أنها رقيقة جدا، أو أنها ألطف ما تكون.

وكان انطباعى قاسيا فقلت لها (أى لنفسى): سألتقط صورة لما أرى من الأتوبيس، وأتأملها بعد طبع الفيلم، عساى أتراجع عما

أشعر به تجاه باريس...

فمن الصعب على النفس أن تظلم جميلة... امرأةِ أو مدينة أو لوحة. والتقطت الصورة فعلا.

وإن هى إلا برهة ـ أو هكذا تصورت من كثرة التأمل والتفكير ـ حتى وقف الأتوبيس، وبدأ الركاب يغادرونه سائرين فى طريق واحد، بعد أن يلتقط كل منهم متاعه، ويضعه على عربة حديدية يدوية يدفعها أمامه، ولما كاد الأتوبيس يفرغ من ركابه نزلت، والتقطت حقيبتى الكبيرة ووضعتها على العربة، مدركا أن علىّ أن أسير فى ركاب الآخرين، لأنهم إلى الفندق الذى سأبيت به ماضون.

***

دقيقة، أو بعض دقيقة، ووجدت نفسى واقفا فى أحد ٣ طوابير أمام مائدة الاستقبال حيث تدوين بيانات جوازات السفر، واستلام مفاتيح الغرف.

وأنا أمام الموظفة طالعت وجها غير مريح لآنسة بدت لى خشنة. ولما سمعتها تقول: «نعم يا سيدى» باللغة الفرنسية التى لا أعرف منها الكثير، وجدت صوتها من النوع الأجش، فأخذتنى الدهشة وأنا أسمع هذا الصوت، وكذلك وأنا أرى هذا الوجه...

... وأين؟ فى باريس؟!

لا بأس!

أخذت المفتاح، وطلبت منها ـ بالإنجليزية ـ أن توقظنى فى الساعة الرابعة بعد الظهر، فقالت بغير اكتراث:

– عندكْ منبــه فى الهــاتف، اطلب رقم ١٢٣ وقل إنك تريد أن تستيقظ فى الساعة التى تشاء.

– شكرا لك.

قالت من تحت طرف لسانها:

– مِغسيه...

.... أى شكرا بالفرنسية.

قلت فى بالى: يا فتاح يا عليم!

***

حين تأهبت للتوجه إلى المصعد جاءت سيدة سمراء ـ قُل سوداء ـ فى العقد الخامس من عمرها، كما أحسبها، واستأذنت فى أن تدفع العربة بدلا منى فأذنت لها، وصعدنا إلى الطابق السادس.

وأمام غرفتى شكرت السيدة، وأعطيتها بقشيشا، وفتحت الغرفة. ولما انحنيت صوب الحقيبة لألتقطها اندفع الباب مقفولا.

وضعت الحقيبة بجوار ساقى اليمنى، وفتحت الباب مرة أخرى، ورفعت الحقيبة محاولا الدخول، أنا وهى فى وقت واحد، حتى لا يُغلق الباب، فانحشرنا، فدخلت أولا وسحبتها ورائى.

ما هذا الذى يحدث؟!

لما دخلنا ـ أنا والحقيبة ـ اندفع الباب مرتطما مقفولا، فإذا وراءه منضدة من الحديد مثبتة فى الجدار ليضع عليها الضيف حقيبته. فتساءلت فى سرى: ما هذا الضيق؟! لم يكن ضروريا أن يكون فى الغرفة سريران، سرير واحد كان كافيا.

خلعت ملابس السفر، وألقيت بها جانبا. ودُست على باب الحمام لأدخل فلم يُفتح، واكتشفت أنه يفتح إلى الخارج ففعلت. وبعد أن غسلت يدىّ رجعت لأفتح الحقيبة وآخذ ملابسى، فوجدت الباب قد حجبنى عن الحقيبة، فقد ارتطم طرفه بطرف السرير.

هتفت معبرا عن الضيق:

- ما هذا الضيق؟!

ووجدت خاطرا، أو انطباعا جديدا، يتسلل إلى نفسى عن باريس. هذا الخاطر يقول إن الرشيق (أو الرشيقة) ليس نحيفا (أو نحيفة) كما تبدو لى باريس فى هذه الغرفة الضيقة فى هذا الفندق الكبير!

وأسوأ من كل ما حدث أننى لم أجد فى الحمام «بانيو»... إذن علىّ أن آخذ حمامى الدافىء واقفا فى هذا المكان الضيق!

أين هى إذن الراحة التى يجدها الناس عند أهل الجمال والنور، المعروفين بالبهاء والوهج، أصحاب الصدر الحنون؟!

وبهتت فى عينىّ صورة باريس!

خرجت من الحمام منتعشا قليلا، وجلست إلى المكتب الموجود بالغرفة، وطلبت بالهاتف زميلى الدكتور سعيد اللاوندى الذى كان

يعمل وقتذاك بمكتب «الأهرام» فى باريس. لم أجده، ولكننى حصلت على رقم الهاتف فى بيته، واتفقنا على أن نرى باريس معا من الساعة الخامسة (قبل الغروب بساعتين) حتى الثانية عشرة مساء... ممكن.

وقمت لأنام سويعات، ولما وضعت جنبى على السرير رأيت غلافا أحمر مستطيلا على المنضدة الصغيرة التى بجانب السرير، مددت يدى فإذا هو غلاف به........

خيبكم الله أيها الباريسيون!

فعلى الغلاف أمنية لمستعمل ما بداخله بقضاء وقت سعيد، وتحذير من أن طلب السعادة فى باريس بغير استعماله يعرض المرء للإصابة بمرض خطير.

- إخص!

قلتها بصوت مسموع، وألقيت بالعبوة فى سلة المهملات إلى جوارى، ورحت فى النوم.

حال بيجال

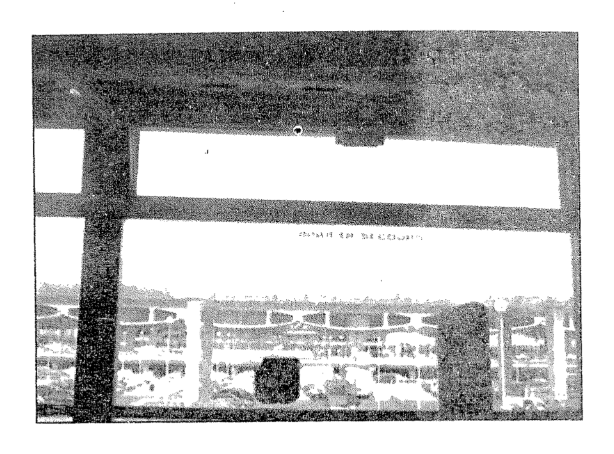
تجدد الأمل فى أن تتغير نظرتى إلى باريس حين جاء سعيد ليصحبنى إلى قلب المدينة فى جولة بين معالمها المعروفة للناس فى

كل مكان. ومعا ركبنا مترو الأنفاق، ومن إحدى محطاته تكلمت ببطاقة هاتف سعيد مع القاهرة مرتين!!

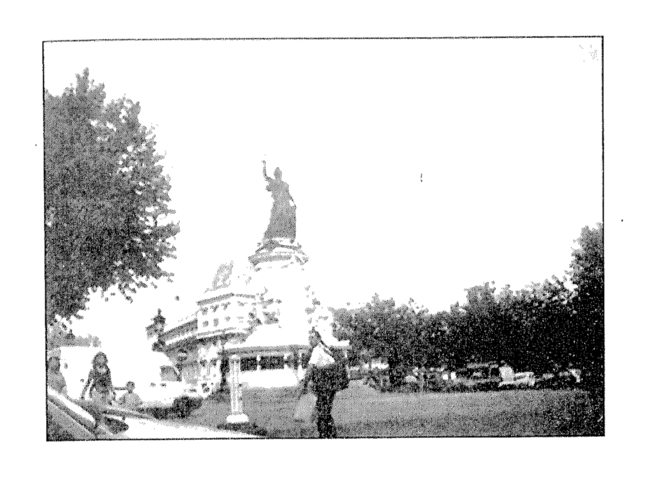
وفى مطعم أنيق بميدان الجمهورية تناولنا طعام الغداء، وفى مقهى يغص بالرواد من كل صوب وحدب فى العالم شربنا شايا. وركبنا مع الفنان التشكيلى المقيم فى باريس ضياء فلتاؤس سيارته فى جولة استغرقت ساعات فى المتاحف، وتحت برج إيفل، وقرب المسلة المصرية فى ميدان الكونكورد، وارتدنا شارع الشانزليزيه، ورأينا كاتدرائية نوتردام، وهدأت نفسى قليلا.

وفى شارع بيجال تغير الحال، فقد تلقيت شرحا عنه لم يعجبنى أبدا!! وأخيرا عدت إلى الفندق لأنام ثم أسافر إلى كوناكرى فجرا بود غير موصول مع باريس!

ومع ذلك ربطنىْ بالمدينة فيما بعد شىء جميل، فحين اختارنى الأستاذ عبدالرهاب مطاوع مدير تحرير «الأهرام» لرصد أهم الاتجاهات السياسية والاقتصادية والفنية والاجتماعية والعلمية فى العالم على مشارف القرن الحادى والعشرين لنشرها مصورة فى الصفحة الأولى فى «الأهرام» تذكرت برج إيفل. فعلى البرج رأيت لوحة ضخمة تضاء ليلا عليها العد التنازلى وصولا إلى سنة ٢٠٠٠. واتصلت بمكتب «الأهرام» فى باريس ليلتقط لى الرقم منها، وبدأ نشر الباب كل يوم سبت على الصفحة الأولى... بدون أى خطأ فى الحساب... شكرا يا باريس!



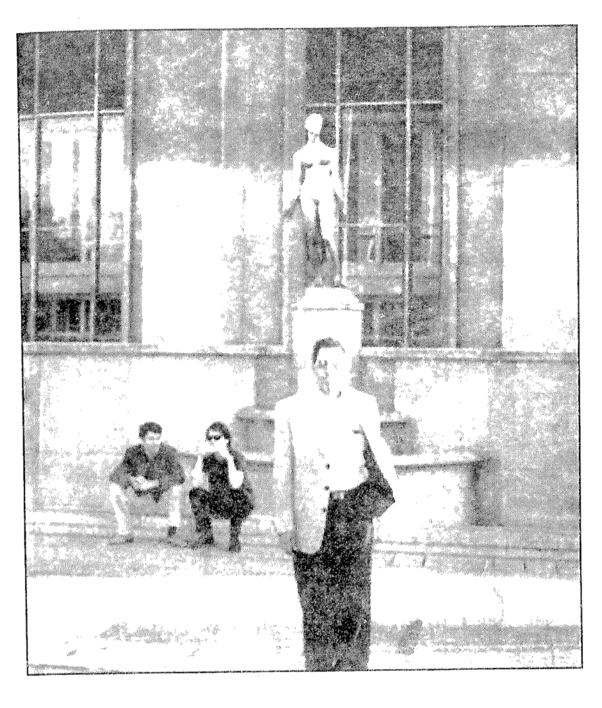
بدت لى الضخامة فى المنشآت التى فى هذه الصورة التى التقطتها من نافذة الأوتوبيس فى مطار شارل ديجول، ولكن من قال إن الضخامة هى الجمال... أنا لم أشعر بأن باريس جميلة... معذرة أيها السادة!



... برغم مظاهر الجمال البادية فى هذه الصورة التى التقطتها فى قلب باريس لم أشعر أبدا بأن المدينة جميلة... هل لأن العشرة لم تكن طويلة؟ ربما...



تقاربت الألـوان بين ابن عبداللاه والتـمثـال الباريسى الكبـير الـذى وراءه، ولكـن هـذا التـقـارب اللونى لم يولّد لديه عـاطفـة الحب مع باريس... لماذا؟ الله أعلم



الألوان متقاربة مع ألوان تمثال باريسى آخر ولكن بلا جدوى فيما يبدو، ولا زيادة فى العاطفة تجاه "عاصمة النور"...



مسلتنا المصرية فى ميدان الكونكورد...

قلت لنفسى إن إحساسى سيزيد بها وبقيمتها الأثرية والتاريخية والحضارية، وبلوعة فراقها، لو التقطت لها صورة بنفسى، وقد حدث...



إلى يمينى د. سعيد اللاوندى وإلى يسارى صديقه الفنان التشكيلى ضياء فلتاؤس... شكرا لهما على جولة باريس القصيرة، وعذرا لهما عن أننى لم أحب مدينة يحبانها ويقيم بها أحدهما ــ ضياء ــ طول الوقت

الفصل الثانى

فى غينيا

- الزوج ينام فى غرفة إحدى الزوجتين ٣ أيام، وفى غرفة الزوجة الأخرى ٣ أيام.

- واليوم السابع؟!

قال على بعد أن ضحك إلى أن استلقى على قفاه:

- إجازة يا أخى!

من أول نظرة

لا تعرف بلدا بحق إلا إذا تحريت أحوال أهله المعيشية: ماذا يأكلون؟ ماذا يشربون؟ ماذا يستهلكون؟ كيف يتداوون؟ كيف يلهون؟ هل يتزاورون؟ بأى صورة يتضامنون وقت العسرة؟ ما أحوال شبابهم؟ ما موقع نسائهم فى المجتمع؟ فى القلب، أم على الهامش، أم رهن إرادة الرجال، أم متمردات عليهم، أم أن العلاقة فرٌ وكر، أم هجوم بهجوم، وعينٌ بعين؟!

***

فى شقيقتنا غينيا لا تحتاج إلى التحرى، فكل شيء تقريبا مطروح أمامك، وتقع عليه عيناك، ويندهش له فؤادك، ويضطرب له وجدانك!

وحين لمس الغينيون أننى مهتم بأمورهم، ودود معهم، أقدر إنسانيتهم، وأننى أعى رباط الدين والثقافة القائم بيننا، وضع كل من تكلمت معه منهم ما فى قلبه على لسانه. والغينى صاحب قلب ناصع البياض مع كل إنسان يخاطبه، إلا إذا بدرت علامة على عدم الاحترام، هنا ينسحب الغينى غاضبا، أو ينفجر ثائرا.

وقد رق القلب لأحوال الغينيين من أول نظرة...

هبطت بى الطائرة الفرنسية الضخمة (أير باص) فى مطار كوناكرى بعد الظهر فى رحلتها الوحيدة أسبوعيا بين باريس وعاصمة غينيا. وما إن خطوت على السلم نازلا إلى أرض المطار حتى لفحت وجهى حرارة الطقس، وتناثرت على جبهتى حبات العرق برغم الهواء المنطلق فى المطار، فالجو حار جدا رطب جدا.

المطار صغير، والطائرات الواقفة فيه صغيرة وقليلة، أربع طائرات تقف متقابلة اثنتين اثنتين، وهو أقل عدد من الطائرات رأيته فى أى مطار نزلت به، باستثناء مطار باماكو الذى توقفت به الطائرة منذ أكثر قليلا من ساعة.

دخلت صالة الوصول فوجدتها مكانا صغيرا جدا، أصغر من أى محطة مترو أنفاق في القاهرة، والناس خارجها مباشرة يتدافعون، وبداخلها تصبب العرق على وجهى وجسمى.

وقبل أن يسألنى رجل الجمرك عما فى حقيبتى كان الدبلوماسى المصرى خالد نادر يناديني، دون سابق معرفة:

- أستاذ محمد؟

- نعم... أنت الأستاذ خالد نادر؟

- بالضبط!

وتقدم صوبى وصافحنى، وقال لرجل الجمرك:

- الأستاذ محمد صحفى، وأنا من السفارة المصرية.

اهتم الرجل، وأعطيته بسرعة فكرة عما بالحقيبة فشكرنا، وخرجنا.

***

حتى قبل أن أترك صالة الوصول كنت قد لاحظت بساطة أحوال الناس خارجها، وتواضع ملابسهم، ورهق وجوههم السمراء الداكنة، وتكاثرهم حول كل صاحب حقيبة لخدمته.

الصالة مفتوحة مباشرة على الشارع، فإذا كنت قادما لانتظار قريب أو نسيب، أو حبيب أو حسيب، فسوف توقف سيارتك فى الشارع على أى حال تشاء، وتقف منتظرا.

الرجل الذى قطع معنا أمتارا قليلة حاملا الحقيبة الكبيرة وضعها فى سيارة خالد، واتجهنا إلى المدينة. ومن أول الطريق إلى آخره بيوت وعشش من الصفيح والأخشاب على الجانبين، وأطفال عراة أو شبه عراة يلعبون، ورجال ونساء يضعون أمامهم مناضد خشبية صغيرة وكبيرة يبيعون عليها أشياء بسيطة: الطعام والشراب، وأدوات التنظيف، وأدوات فلاحة الأرض، وغير ذلك.

ما كل هذه البساطة؟ ما كل هذا الانخفاض فى مستوى المعيشة؟

– أراك ساهما، ولابد أن الأحوال لا تسرك.

بهذه الكلمات أخذنى خالد من خواطرى.

قلت بتأثر:

– الحقيقة لم أكن أظن أن يكون المطار وما حوله، ومن حوله كما

أرى الآن على الجانبين.

- الظروف هنا صعبة جدا جدا ، وسوف ترى.

- أكثر مما رأيت؟

- بكثير جدا ، الكهرباء مثلا تنقطع ١٦ ساعة فى اليوم أحيانا .

***

أمام فندق نوفوتيل نزلنا ، وأشار خالد إلى العمال الواقفين ببهو الفندق، فتقدم اثنان منهم، وحمل أحدهما الحقيبة الكبيرة إلى الداخل.

- العشاء الليلة فى بيت السفير، هل يناسبك حضورى فى الساعة الثامنة؟

- عظيم...

كان السفير المصرى فى غينيا الدكتور فريد صالح قد قال لى بالهاتف قبل أن أغادر القاهرة إن من المحتمل أن يلقانى الدبلوماسى الشاب النشيط خالد نادر فى المطار، ثم أضاف:

- لقد حدثته عن سابق لقائنا فى بيروت أيام الحرب الأهلية اللبنانية، وعن مغامراتك فى مناطق الحروب والاضطرابات، فصمم على أن يكون فى استقبالك بالمطار.

وقبل أن يتركنى فى الفندق، قال خالد:

- تجنب أن تأكل خارج الفندق، وإذا كنت جئت بغير تطعيم ضد الملاريا فإن عندى حبوبا سأعطيك اثنتين منها حين نتقابل فى المساء،

والمنطقـة التى بهـا هذا الفندق آمنة، وكـذلك باقى مناطق المدينة، ولكننى أعتقد أنك لن تحتاج إلى ترك هذا المكان اليوم، سوى معى إلى بيت السفير، وسوف أعود معك أيضا بسيارتى.

كل هذه التوجيهات صدرت لى مرة مواحدة.

وفى مقابلها أجزلت الشكر لخالد، وأسرعت إلى غرفتى ألتمس الراحة.

مـامـادو وأمـادو

- لماذا لم تأت إلى العمل يا مامادو (محمدُ) أمس؟

- أخى أمادو (أحمدُ) مات ودفنته، ولم أستطع الحضور لأن الوقت كان قد فات.

هذا الحوار العجيب يمكن أن تسمعه فى إفريقيا الوسطى والشرقية كل يوم، وهو حوار لا يثير عجبا هناك، فالموت عادى من كثرة تكراره. ويتم دفن الميت - أو معظم الموتى إن لم يكن جميعهم - بدون مراسم جنازة أو عزاء، أو تبادل للمجاملات.

والموت يحصد الرؤوس جميعا فى أى عمر يشاء، فالمرض منتشر بسبب نقص الرعاية الصحية من ناحية، وحرارة الطقس من ناحية ثانية، وغياب المرافق الصحية من ناحية ثالثة، وضعف أو عدم تنوع الأغذية من ناحية رابعة، و........... من ناحية خامسة، و.... سادسة، و... سابعة...: وهكذا.

وقال لى محمد قُعيب مسئول منظمة الأغذية والزراعة التابعة للأمم المتحدة (الفاو) فى غينيا، وهو من تونس، إن متوسط العمر فى غينيا ٤٨ سنة (فى تونس ٦٧ سنة)...

يا للهول.

وهل للموت العادى المتواتر فى إفريقيا جنوبى الصحراء صلة بالانقلابات والحروب الأهلية والمجازر والمذابح التى تقع فى بعض هذه الدول، ومنها ليبيريا، وسيراليون، ورواندا، وبوروندى، وأيضا الصومال؟

شعرت بأن الاستهانة بالحياة أمر وارد فى الظروف التى تصعب فيها الحياة.

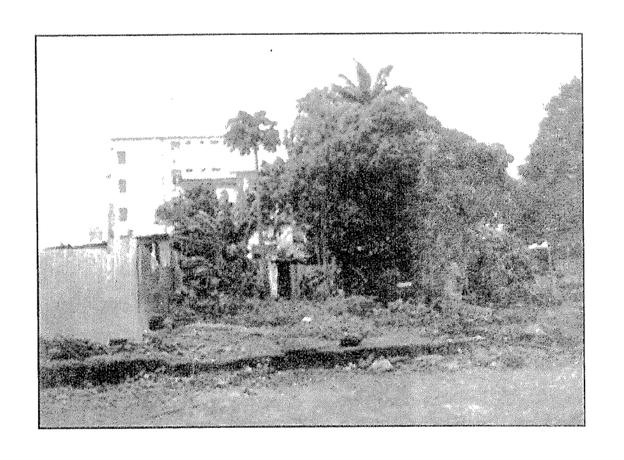


الدبلوماسى المصرى الشاب خالد نادر... حيوية وعزم، ووعى بظروف البلد الذى يعمل فيه، وإحساس مرهف بأحوال الناس... وأحواله هو أيضا



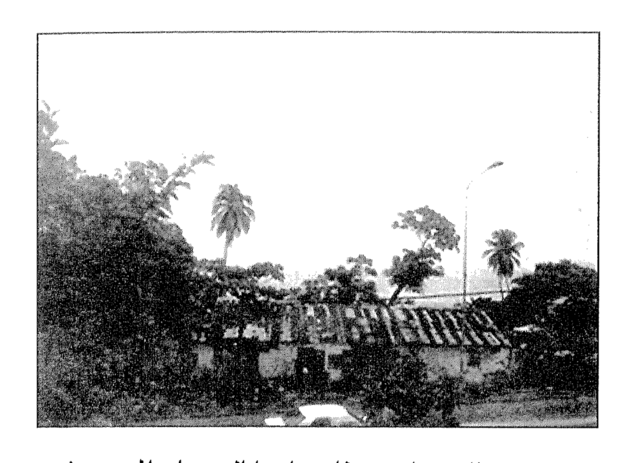
الخـبيـر التونسى مـحـمـد قُـعيب فـى الـوسـط... يعـمل فـى غينيـا بقلبه ومن قلبه، ويتـمنى أن تسـتفيـد من إمكـاناتها الزراعية والمائية والغابية...

لـو حـدث لانقلب حال البلاد والعباد... إلـى الأفضل طبعا



هل تصدق أن هذا البناء الأنيق الذى فى خلفية الصورة هو قصر الرئاسة فى كوناكرى؟...

أما الذى فى صدرها فهو بيوت المواطنين، فكم من الجهد والمساعدة تحتاج إفريقيا لتجد لشعوبها مكانا أفضل تحت الشمس!



هذه البيوت العشوائية تطل عليها السفارة المصرية فى كوناكرى. هل تصدق؟

وفى هذه العشش يلهو الأطفال حفاة نصف عراة فى الصيف والشتاء

ابنة نائب الرئيس
في سـريري!!

بينما أجلس بعد العصر في الهواء الطلق في مقهى على المحيط الأطلنطي بفندق «نوفوتيل» في كوناكري عاصمة غينيا جاء من يقول لي باهتمام:

- هل تريد حديثا صحفيا من النوع الشائق؟!

- طبعا طبعا.

- توجد الآن في بهو الفندق ابنة نائب رئيس سيراليون، وكانت ضمن اللاجئين القادمين من بلادها، ولها قصة هروب غريبة.

- سأذهب فورا.

وأسرعت، دون أن أشرب الشاي الذي أمامي، إلى بهو الفندق، والرجل ورائي. وهناك أشار إليها، وكانت لاتزال تتحدث مع موظف الاستقبال.

وقفت قريبا منها أتأملها إلى أن تنتهي من حديثها مع الموظف، ولكنها قطعت الحديث، والتفتت إليّ قائلة:

- لقد رأيتك صباح اليوم؟

- أين؟

- فى سفارتنا، ألم تكن هناك؟

- كنت فعلا.

- ماذا فعلت؟

- طلبت من على بدارا كمارا نائب سفير بلادكم ترتيب لقاء لى مع الرئيس تيجان كابا.

- أنت صحفى؟

- نعم.

ومدت يدها الرقيقة مصافحة، ثم سألتنى:

- من أى بلد؟

- من مصر.

- أهلا بك، اسمى أنيتا.

- أنا اسمى.........

ثم هل توافقين على رواية حكاية هروبك لى، وأن ألتقط لك بعض الصور؟

- بكل سرور، فى السابعة مساء اليوم، هل يناسبك؟

- يناسبنى، أين؟

- هنا فى الفندق، فى البار. لقد تعودت احتساء بعض البيرة فى ذلك الوقت كل يوم.

- لا بأس، هل تقبلين دعوتى؟!
- شكرا لك، أين تجلس الآن؟
- هنا فى الفندق، فى المقهى الذى على البحر.
- شكرا لك.

***

إن لك أن تسألنى:

من هذا الذى جاء يبلغك بوصول ابنة نائب رئيس سيراليون إلى الفندق؟ وكيف كان على علم بما جرى لها؟ وكيف عرف أن لقصة هروبها من بلادها قيمة صحفية؟

وسوف أجيب على السؤال كاشفا لك بعض أسرار الصنعة الصحفية، أو ما سميته من قبل «حرفة الصحافة» وهو عنوان الجزء الأول من كتاب صدر لى قبل هذا الكتاب.

الذى جاء يكشف الأسرار ويذيع الأخبار عميل لى!!

فالصحفى حين ينزل ببلد يسرع إلى تبين الأشخاص الموجودين فى دائرة عمله، ويقيم معهم - بسرعة أيضا - علاقة تسمح بنوع من الحوار الذى يستشف منه معلومات تساعد فى إنجاز مهمته بسرعة ودقة. وأفضل شخص يقع عليه الاختيار هو الذى يعى طبيعة العلاقة بينه وبين صحفى. وهذا الرجل هو الفضولى المحب لجمع الأخبار، والذى يجد متعة فى أن يكون مصدرا لمعلومات الصحف،

بما فيها الصحف التى لا يقرأها.

إنه ـ بإيجاز ـ الرجل الذى يشعر بأنه «نصف صحفى» إن جاز التعبير.

فحين يعرف هذا الشخص أنك صحفى لا تحتاج إقامة العلاقة بينكما إلى مجهود يذكر، فهو الذى يتقرب إليك، وأنت مستعد طبعا لهذا القرب.

وإذا لم تجد مثل هذا الشخص فستجد الذى يحب إقامة العلاقات الإنسانية العادية، ولابد أن يكون الرجل من هذا النوع مطلعا عارفا، وإلا صارت العلاقة تضييعا للوقت فى ظرف لا يسمح، أى فى وقت ضيق، أو فى ظروف رحلة عاجلة أو سريعة.

وإذا لم تصادف هذا أو ذاك فليس أمامك إلا أن تعرف محب الحصول على المنافع العينية والمادية... ولله الأمر!

وربما أكون مبالغا فى استخدام كلمة «عميل» فى وصف أحد هؤلاء الثلاثة، برغم أن الكلمة لا تعنى دائما رجل المخابرات، فهى تنصرف أيضا إلى الزبون، أى الذى يشترى، أو يشترى ويبيع، كما تنصرف إلى من يؤيد ويناصر.

وكان عميلى فى هذا الفندق بكوناكرى من الطراز الأول، وقد هنأت نفسى به وأنا عائد إلى الهواء الطلق، وإلى الشاى الذى تركته على المائدة.

وقبل أن انتهى من احتساء الشاى جاءت ابنة نائب الرئيس،

وسألتنى إن كان ممكنا أن تجلس، فوافقت مرحبا.

- مستر محمد، أنا فى ورطة.

قالت هذه العبارة وقد كسا وجهها خجل شديد.

ظننت للوهلة الأولى أنها تحتاج نقودا، أو تريد دعوتها إلى الغداء، فسألتها:

- ماذا حدث؟

- ابن عمى المقيم فى هذا الفندق خرج ومعه مفتاح غرفته، ولم يحجز لى غرفة حسب اتفاق بيننا.

- أهذه ورطة؟

- الحقيقة أننى فى أشد الاحتياج إلى قسط من الراحة.

- اطلبى مفتاح غرفة ابن عمك من موظفى الاستقبال.

- طلبته فعلا، وكنت أجادلهم وقت أن تحدثت معك.

قلت، وقد بدأت أقلق:

- ماذا عساى أفعل؟

- تسمح لى بالراحة ساعة أو ساعتين فى غرفتك!

قلت على مضض:

- ممكن!.... على كل حال أنا فى انتظار السفير الأمريكى اللاجىء من بلادكم فى هذا المكان بعد نصف ساعة، وقد يمتد حوارنا قرابة الساعة، وبعدها سيأتى صديق من السفارة المصرية، هناك وقت إذن إلى أن أحتاج الغرفة!

قالت، وقد بدت عليها الراحة، وزال عنها الشعور بالخجل:

- أشكرك جدا، هل المفتاح معك؟

قلت، وأنا أفكر في احتمال أن يكون للأمر عاقبة غير طيبة:

- إنه معى، ولكن لعلك تسمحين لى بالصعود إلى الغرفة أولا لترتيب المكان!!

***

كنت قد وصلت إلى كوناكرى يوم ٨ يونيو عام ١٩٩٧. وفى ذلك اليوم كانت أنيتا تخرج من مخبئها فى عاصمة بلادها فريتاون متخفية، لتركب قاربا صغيرا مع قرابة ٥٠ شخصا آخرين، وهدفها الهروب مع الهاربين من الانقلاب الذى كان قد أطاح بالنظام الديمقراطى فى سيراليون يوم ٢٥ مايو، أى قبل قرابة أسبوعين من وصولى واختفائها.

وقد اختبأت لأن مصيرها كان القتل لو أمسك بها رجال الانقلاب، أو أفراد قوات التمرد التى تحالف معها الانقلابيون. فوالدها «ألبرت جو ديمبى» وهو طبيب قبل أن يكون سياسيا، كان متهما قبل الانقلاب بأنه وراء تشكيل قوات الدفاع الشعبى المعروفة باسم «الكاماجورز» وهى القوات التى قال عنها قادة الانقلاب إنها تشكلت على حساب الجيش، وسحبت منه امتيازاته، خاصة مخصصاته من الأرز!!

وقد فرت والدة أنيتا وشقيقتها وأحد أشقائها إلى الولايات المتحدة فور وقوع الانقلاب، واختفى أبوها عن الأنظار، كما فر شقيق آخر لها إلى كوناكرى، واختفى أشقاؤها الآخرون فى فريتاون.

وأنيتا فتاة حلوة التقاطيع، ممشوقة القوام، صغيرة على المآسى والأحزان (عمرها ٢٢ سنة وقتذاك).

قالت لى، وهى تناولنى المفتاح بعد أن عادت من غرفتى:

- هل تصدق أننى ظللت فى قارب اسمه Ocean Princess (أميرة المحيط) ١٧ ساعة، منها ٥ ساعات أمام كوناكرى إلى أن يأتى المسئولون الغينيون الذين يسجلون بيانات اللاجئين صباحا ؟!

أبديت تعاطفى معها، وسألتها:

- هل تحدثيننى عن قصة عمل والدك بالسياسة؟

- قبل أوائل عام ١٩٩٦ لم تكن لوالدى أى صلة بالسياسة، ولكن أحمد تيجان كابا الذى كان قد استعد لترشيح نفسه لمنصب الرئاسة - فى أول انتخابات ديمقراطية فى البلاد - اختاره للترشيح معه لمنصب نائب الرئيس، بهدف أن يحصل على أصوات الناخبين فى جنوب سيراليون، فقبيلة والدى لها نفوذ كبير فى المنطقة.

- وماذا كان شعور أسرتك حين فاز كابا ومعه والدك؟

- فرحنا كثيرا، خاصة أننا انتقلنا إلى دار الدولة «قصر الرئاسة» [The State House] لنقيم فى الجناح المخصص لنائب الرئيس.

- وما شعورك الآن؟

- لا تغضب منى إذا قلت لك إننى ألعن السياسة.

- لماذا تعتقدين أننى قد أغضب؟!

قالت، وعلى وجهها علامات براءة من فى سنها، واستياء من فى وضعها البائس:

- أليست الصحافة قريبة من السياسة؟!

قلت وقد تدافعت على رأسى الخواطر، وتزاحمت بها:

- لست أدرى!

وكان من بين الخواطر المتزاحمة فى رأسى أن الرئيس تيجان كابا اللاجىء وقتذاك فى عاصمة غينيا كان قد ترك منصب مستشار فى الأمم المتحدة بمقرها فى نيويورك، وعاد إلى بلاده ليصبح رئيسا لواحدة من أفقر دول العالم، وأكثرها ابتلاء بالانقلابات والعنف الدموى منذ استقلالها عن بريطانيا عام ١٩٦١.

مصرع ديمبى الكبير

□ هل كانت أنيتا على حق حين لعنت السياسة فى بلادها ؟

اقرأ وتأمل الحكاية التالية ثم أجب؟

□□ قبل نهاية يونيو عام ١٩٩٨ زحفت قوات كبيرة العدد من جيش سيراليون الذى كان مازال مسيطرا على الحكم فى البلاد إلى

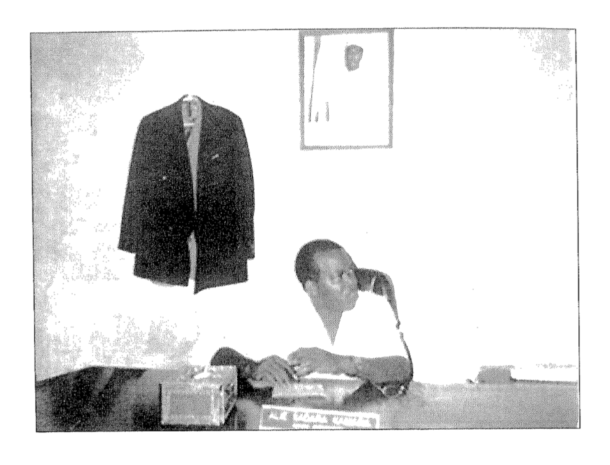
مدينة «بو» عاصمة الجنوب، وهاجم الجنود أسرة ديمبي الكبير المكونة من والد نائب الرئيس ـ وهو رجل طاعن فى السن ـ وزوجاته وأحفاده.

وقد فرت الزوجات، كما فر الأحفاد، إلى الأدغال، ولم يجد الجنود فى البيوت إلا ديمبى الكبير «ألبرتساندى ديمبى» الذى لم يستطع الفرار فقتلوه!

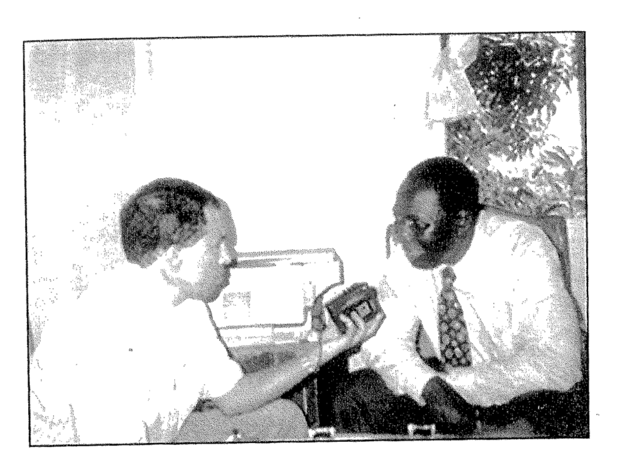


الناعمة أنيتا ديمبى... صغيرة **على الألم** السياسى.

قالت لى: نهب المتمردون مقر إقامة والدى بالكامل، ولو أتيحت لهم فرصة خلع البلاط لفعلوا...



علـى بدارا كـامارا نائب ســفير سيراليــون فـى كـوناكـرى... ودود وخـدوم. اتصـل فـورا بسـكـرتير الرئيس، وقــال وأنـا أسـمع: مـسـتـر محـمـد يمثل أهـم صحيفة فـى مـصـر والـعـالـم الـعـربـى...



عبـدالرحمن بنجورا وزير الإعـلام فـى حكـومة كـابا المخلوعة... كـان غـاضبـا جدا من الانقلابـيين، وعليهم. وكـان حـزينا حين قـابلتـه فـى سـفـارة بلاده بكـوناكـرى، وظل حـزنه باديا على وجهه طول الوقت



أنا وتيجان كابا... كل منا وضع كفا على كف فى انتظار فرج العودة، هو إلى بلاده بزوال النظام العسكرى، وأنا إلى بلادى بانتهاء مهمتى...

طبعا لم نتفق على هذه الحركة، ولكن اتفقت أحوالنا فى لحظة من لحظات التقاط الصور...

كل شىء مباح

- ما هذا يا على؟!
- حكمة ربنا يا أستاذ محمد!

***

سأحدثك أولا عن على.

اسمه على جمال بنجورا، أما بنجورا فهو اسم القبيلة، وهى ممتدة من غينيا إلى سيراليون. واسمه هو: على جمال. واسمه على لأنه مسلم فى بلد مسلم ٩٠٪ من شعبه مسلمون. واسمه جمال حبا فى الزعيم الراحل جمال عبدالناصر الذى ساند الثورة الغينية على الاستعمار الفرنسى، والذى أحبه شعب غينيا وقادتها حبا جما، وخرجوا جميعا للقائه فى كوناكرى حين زار هذا البلد بعد قمة إفريقية فى أكرا عاصمة غاناعام ١٩٦٥.

على... طيب للغاية، ورقيق إلى أبعد حد.

وهو قارىء نشرة الأخبار باللغة العربية فى التليفزيون الغينى، ومقدم نشرة الأخبار باللغة العربية ـ وهى أسبوعية ـ فى راديو غينيا، ومحطات الإذاعة المحلية، وهو رئيس تحرير صحيفة «أخبار غينيا»

التى تصدر باللغة العربية. وهو الأمين العام لجمعية الدعوة الإسلامية للثقافة والتنمية التى يرأسها العقيد معمر القذافى على المستوى العالمى.

هل الأرض فى غينيا تتكلم اللغة العربية وتكتبها ؟

لا... عدد قليل من الشعب الغينى يقدر بـ ٥٥ ألف نسمة هو الذى يتحدث اللغة العربية، وتعد من اللغات المتداولة بدرجة ما بين القبائل، وتسمعها فى الأسواق والحوانيت، وفى المساجد بكل تأكيد. وتتحدث القبائل لغات عدة محلية، بينما الفرنسية - التى يعرفها معظم الشعب بدرجات متفاوتة - هى لغة الدولة.

وكان على بنجورا - كما ينادونه - رفيق طريق.

سافر معى إلى منطقة الحدود بين غينيا وسيراليون، فى محاولة منى لرؤية جانب من الصراع الذى كان محتدما فى سيراليون، وجانب من آثاره متمثلا فى تدفق اللاجئين وانتشار المتمردين فى تلك المنطقة. وحضر معى الحديث الذى أجريته مع الرئيس أحمد تيجان كابا رئيس سيراليون فى القصر الجمهورى الذى كان مخصصا لإقامته فى كوناكرى أيام لجوئه إليها، بعد الانقلاب الذى أطاح بنظامه.

وذهب على معى إلى قصر الرئاسة الغينى حين حاولت إجراء حديث مع الرئيس لانسانا كونتى، وقد حالت ظروف وترتيبات جولات الرئيس كونتى الداخلية دون إجراء الحديث، وكان على سيترجمه لو كان تم.

وعلى بنجورا متزوج من اثنتين.

- لماذا يا على؟

- طبيعة البلد تفرض الزواج من اثنتين، ويجوز أن عدد الإناث أكثر من عدد الذكور، والمرأة عندنا تختلف عن المرأة فى مصر. عندنا لا تشعر المرأة غالبا بالغيرة، أو ليس بالصورة الموجودة فى مصر. والزواج من اثنتين لا يمزق الأسرة مادام الزوج قادرا على توفير أسباب المعيشة، ولو فى الحد الأدنى.

- كيف تنامون فى البيت؟

- النظام المثالى، أو الشائع، أن يكون البيت مكونا من ٣ غرف وصالة. غرفة لكل زوجة، وغرفتان للأولاد من الزوجتين، وتخصص الصالة لنوم البنات حين يكبرن.

- أين يبيت الزوج؟

- الأمر واضح يا أستاذ محمد!

- هل توضحه لى أكثر؟

- الزوج ينام فى غرفة إحدى الزوجتين ٣ أيام، وفى غرفة الزوجة الأخرى ٣ أيام.

- واليوم السابع؟!

قال على بعد أن ضحك إلى أن استلقى على قفاه:

- إجازة يا أخى!

- أين ينام الزوج فى الإجازة؟!

- فى غرفة الأولاد إذا كانوا صغارا، وفى المكان الذى ينام فيه الذكور لو كانت البنات فى سن المراهقة أو الزواج.

- عظيم. هل يمكن أن أتزوج غينية تسافر معى إلى مصر؟

- شقتك كم غرفة؟

- غرفتان وصالة.

ضحك على إلى أن استلقى على قفاه مرة أخرى، وقال:

- لا ينفع.

***

- ما هذا ياعلى؟

- حكمة ربنا يا أستاذ محمد!

***

الشىء الذى أسأل عنه على أزعجنى جدا...

حين ذهبت إلى الصالة التى يوجد بها البار فى الفندق لأنتظر أنيتا، وأتحدث معها، وجدت الوحدة الإنسانية قد تمثلت خير تمثيل فى هذه الصالة، ففيها زالت تماما الفوارق العنصرية!!

كل رجل أبيض يجلس وإلى جواره فتاة سوداء فى وضع يمكن أن يقال إنه عاطفى، يمسك بيدها، أو يطوق عنقها بذراعه، أو يهمس ناظرا فى عينيها، أو يضع خده على خدها، أو يقف وراءها منتظرا

من زميل له التقاط صورة للذكرى، وهكذا...

الفتيات ليست زوجات لهؤلاء الرجال الأوروبيين والأمريكيين...

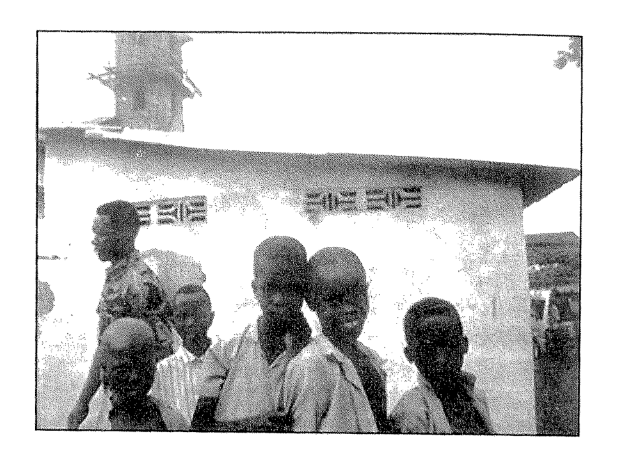
إنهن بائعات هوى، أو بائعات وقت للتسرية أو التسلية، أو بائعات لون مختلف يظهر فى صورة يتذكر بها الأبيض البلد الإفريقى الذى زاره أو عمل فيه.

قال على:

- شاءت حكمة الله أن يوجد هذا البلاء فى بلادنا المسلمة وعلى أرض شعبنا المتدين، الذى عنده خجل وحياء يصل إلى حد أن الرجال يستحون أن ينظروا إلى النساء من غير أفراد أسرهم، خاصة فى الريف.

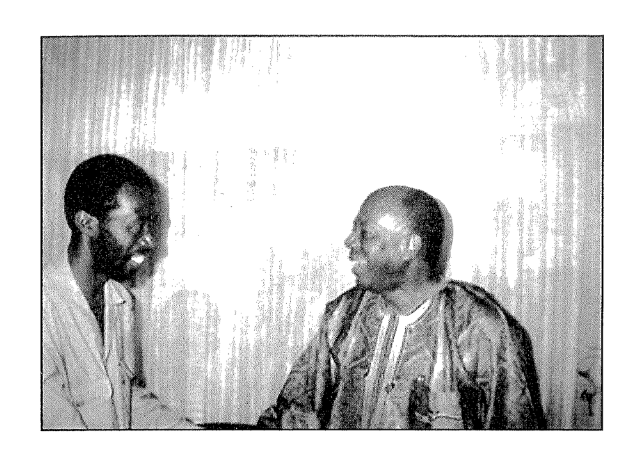
وحكمة الله التى يتحدث عنها على هى الحرب الأهلية التى نشبت فى ليبيريا المجاورة فى عام ١٩٩٠ وأدت إلى هجرة مئات الألوف من الليبيريين إلى غينيا عبر الحدود. ولجأ مئات الألوف غيرهم إلى غينيا من سيراليون المجاورة بنشوب التمرد فيها بعد حرب ليبيريا بسنوات، ثم أخيرا بسبب الانقلاب على حكومة كابا.

والمهاجر فقير وضعيف، وفى وجود الفقر والضعف كل شىء مباح.



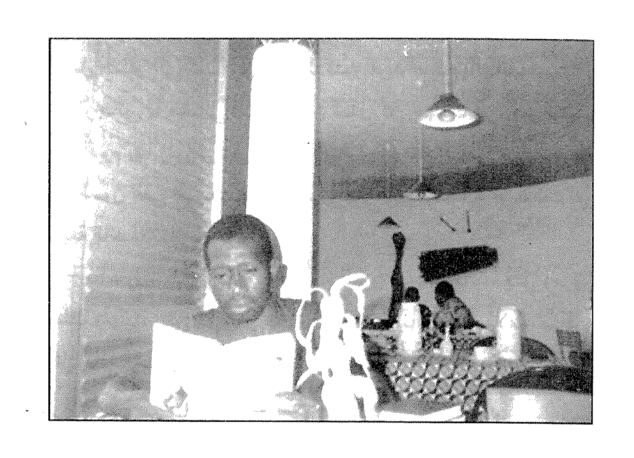
الشـوكولاته تحـتـاج إلـى حـمـاية ورعـاية لـكـى لا تـذوب تحت شـمس إفـريقيـا الحارقة...

تحتاج إلـى تـقـدم اقـتـصـادى وتـعـلـيم ورعـاية صـحـية



على جمال بنجورا يصافح أحمد تيجان كابا.. والألقاب مخفوظة...

على ذهب معى إلى القصر المخصص لإقامة كابا فى كوناكرى ليحضر الحديث



فى مقهى الفندق طلبت من على بنجورا أن يتصفح مجموعتى القصصية "حكايات قريتنا"...
الصورة ستذكرنى بأن لنا إخوة فى الدين واللغة بعد الصحراء الكبرى جنوبا...

يأجوج ومأجوج

قبل السفر إلى كوناكرى قلت للدكتور فريد صالح بالهاتف:

- رجائى يا معالى السفير أن تبذل كل جهدك من أجل ترتيب رحلة أقوم بها إلى فريتاون. أريد أن أرى الوضع الدامى فى عاصمة سيراليون على طبيعته، وسيكون أمرا طيبا للغاية لو تمكنت من مقابلة قائد الانقلاب.

- سأحاول، ولكن الظروف فى سيراليون صعبة جدا... قتْل وحرْق، وسلب ونهب، على كل حال حين تصل إلى كوناكرى بالسلامة سيكون لكل حادث حديث.

***

حديث السفر إلى عاصمة سيراليون كان ثقيلا على كل أذن سمعته منى. وكان السفر من كوناكرى إلى فريتاون ممكنا بطريقين:

الأول ـ طريق البحر، أقصد المحيط الأطلنطى، فى مركب أو قارب من تلك التى تقضى أكثر من ١٢ ساعة لتصل من إحدى المدينتين إلى الأخرى، فهى مراكب وقوارب شراعية.

وكانت هذه القوارب والمراكب تبحر ذاهبة وعائدة بكثرة، تأتى إلى كوناكرى باللاجئين والفارين، وتعود فارغة.

الثانى ـ طائرة هليكوبتر تابعة لشركة روسية خاصة، تعمل بين فريتاون وكوناكرى، وتقطع المسافة فى ساعة، وتعود أيضا فارغة.

من الناحية النظرية السفر سهل، ومن الناحية العملية مستحيل!

فالعصابات المسلحة، وقوات التمرد التى وصلت إلى كوناكرى مع وقوع الانقلاب، وقوات الجيش التى قامت به تعيث فسادا فى الأرض: تقتل، وتسرق، وتنهب، وتسطو، وتغتصب النساء فى البيوت والشوارع.

ورحمة ربك وحدها هى التى تنقذ هذا الإنسان أو ذاك.

قال الرواة عن فظائع سيراليون الكثير: لو أن بيد رجل ساعة وكان اللص، أو المتمرد، أو الجندى فى عجلة من أمره فسيقطع يد الرجل ليستخلص الساعة فورا. أما السيدة التى بيدها إسورة فلا بد من قطع يدها، فلا أحد من هؤلاء المتمردين مستعد أن ينتظر بعض الوقت ليُتاح للسيدة خلع الإسورة.

الخارج مولود والداخل مفقود.

والداخل لابد أن يكون محميا بقوة مسلحة، ولابد أن يكون لديه مأوى معلوم، وإلا أصبح احتمال قتله قائما بنسبة ٩٩,٩٩٪ إذا كان معه شىء له قيمة، حتى لو كان ملابسه.

وما قيمة السفر إذا لم يكن ممكنا من كوناكرى الاتصال ـ مجرد

الاتصال ـ بحكومة الانقلاب؛ وقائده والسياسيين فى البلاد.

وإذا كان السيراليونى يهرب فليس للمصرى أن يتقدم مهما تكن الأسباب، خاصة إذا لم تكن لمصر مصالح فى سيراليون تستحق المخاطرة بحياة صحفى مصرى.

قال ناصح أمين:

- الصحفيون الأجانب الموجودون فى فريتاون معتمدون هناك، أو كانوا فى هذا البلد، ويعتمدون على أشخاص يتقاضون منهم مئات الدولارات، وإذا كنت تريد أن تعرف أحوال سيراليون ادخلها من الخلف، ستجد اللاجئين المتدفقين إلى غينيا والمتمردين المنتشرين فى الجنوب.

- ماذا تعنى بالدخول من الخلف؟

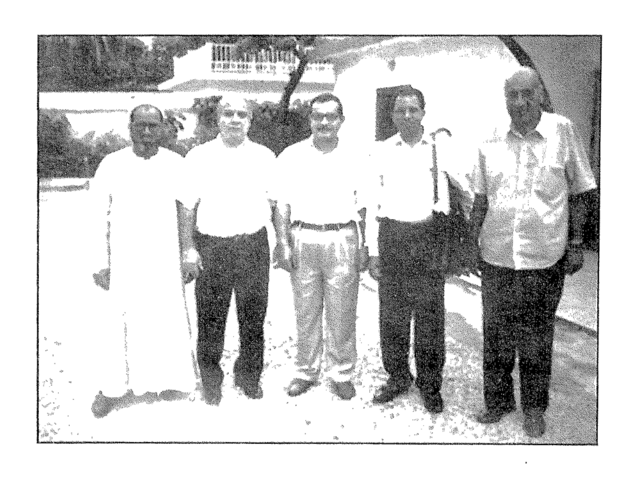
- اذهب إلى منطقة الحدود، وهناك ترى وتسمع الكثير.

***

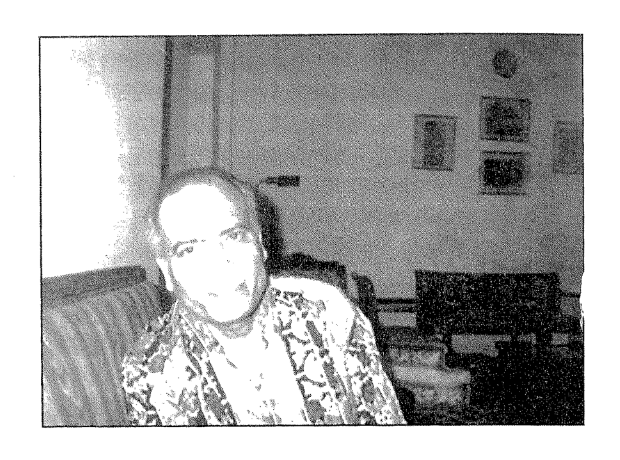
وقبل أن أذهب إلى الحدود سمعت روايات لها العجب من المصريين العائدين من سيراليون يتقدمهم السفير صلاح كامل الذى فاجأته الأحداث فى فريتاون، وتعذب بها أياما ليضمن عودة آمنة سالمة للمصريين، وقد نجح.

وخلاصة ما سمعت أن المتمردين والجنود الذين انتشروا فى العاصمة بعد نزولهم من الأحراش كانوا كقوم يأجوج ومأجوج حين

ينكسر السد القائم بينهم وبين البشر فينفجرون تدميرا وتحطيما وإهلاكا للزرع والضرع وتقتيلا فى الناس وإذلالا، خاصة إذا كانوا تجار سيراليون الأغنياء من اللبنانيين (٩٠٠٠ نسمة) والهنود، وهم من التجار الأثرياء أيضا!



وهيب اسكندر قلادة (قريبى من ساحل طهطا) مدرس مصرى مقيم من قديم فى كوناكرى، فابن عبداللاه، فشريف إبراهيم الملحق الإدارى بالسفارة، فالسفير الدكتور فريد صالح، فرئيس البعثة الأزهرية فى غينيا الشيخ صلاح كامل... فى مقر إقامة السفير



السفير صلاح كامل سفير مصر فى سيراليون... ذاق مرارة الانقلاب بالليل والنهار، ولما التقى بقائده بول كوروما وجد عينيه لجة من الاحمرار بعد أن ظل الزعيم الانقلابى أياما لا ينام



محمد فتحى الدبلوماسى المصرى الهارب (عفوا اللاجىء) من سيراليون يجلس فى فندقى بكوناكرى... شاب اجتمع فيه الحماس والتروى، وساعد كثيرا فى ترتيبات خروج المصريين سالمين

رحلة المائة ميل

تحريت جميع احتمالات السفر الآمن إلى سيراليون والعودة السالمة منها، فلم أجد احتمالا واحدا قائما.

كان مطروحا أن يرتب لى رجل أعمال سيراليونى مقيم فى كوناكرى الرحلة، وكذلك اللقاء مع قائد الانقلاب جونى بول كوروما. ورشح رجل الأعمال شقيقه الشاب ليصحبنى إلى هناك فى الطائرة الهليكوبتر الروسية، وحين تهبط الطائرة فى فريتاون سيكون هناك حارسان مسلحان فى انتظارنا.

وكان رجل الأعمال واثقا من هذا الترتيب لأن كوروما يمت له بصلة قرابة وثيقة، وكان يعرف أن قائد الانقلاب يريد إيصال صوته إلى مصر ورئيسها مبارك بصفة خاصة.

وكان الاتفاق يقضى بأن أتحمل تكاليف الطائرة، ومائة دولار لشقيق رجل الأعمال، ومثلها للحارسين المسلحين اللذين سيكونان فى انتظارنا فى عاصمة سيراليون.

ووافقت.

ولما قيل لرجل الأعمال: أنت تتحمل المسئولية عن سلامة هذا الصحفى المصرى، نقض الاتفاق على الفور!

وكان مطروحا أيضا أن يصحبنى فى الرحلة على بنجورا ـ وحده أو مع شقيق رجل الأعمال ـ ولكنه طلب فرصة للاستشارة. ولما استشار عاد ليقول إن هذه الرحلة سيكون فيها خطر كبير على حياة الاثنين، أنا وهو. وفى الحد الأدنى سنوضع فى السجن.

فعلى يحمل بطاقة صحفى برئاسة الجمهورية الغينية، وقد زار سيراليون مرات عديدة بهذه الصفة، وكان ممكنا أن يعتبره رجال الانقلاب جاسوسا، وأنا معه.

نسيت أن أقول إن العلاقة بين سيراليون وغينيا تشبه العلاقة بين لبنان وسوريا، برغم أن الأولى كانت مستعمرة بريطانية، والثانية فرنسية، وبرغم أن بين البلدين تمثيلا دبلوماسيا.

واقترح رجل أعمال لبنانى فار من سيراليون اسمه موسى مروة (من مروءة) ويقيم بالفندق الذى أقيم به، أن أدخلها من حدود ليبيريا مع رجال يعرفهم، إلى أن أصل إلى فريتاون، وكانت مشكلة هذه الطريق بعده ومروره بمناطق خاضعة لسيطرة المتمردين وقوات الجيش، وأنهم لن يتركونى أمر دون أن يأخذوا ما بحوزتى.

وأخيرا انتصر الناصح الأمين.

***

- هل تسافر معى يا على إلى حدود سيراليون؟

- لا مانع، ولكن سيارتى أضعف من أن تقطع هذا الطريق الطويل

ذهابا وإيابا.

- نستأجر سيارة قوية.

- سأتفق مع محل يؤجر السيارات بعد ظهر اليوم، وسوف اتصل بك فى المساء لنعقد العزم على السفر.

وفى التاسعة صباحا كنا أمام المحل، وقاد على السيارة قرابة ١٠٠ متر ثم استأذنته فى أن يلتقط لى صورة فى بداية الرحلة. وبعد التقاط الصورة قلت له:

- فتش هذه السيارة يا على.

- لماذا؟

- يبدو أنها خالية من أى معدات احتياطية.

- الأفضل أن نفتشها، عندك حق.

ووجدناها خالية من المعدات الاحتياطية، فعدنا أدراجنا إلى المحل، ولما اتخذنا كامل الاستعداد انطلقنا.

***

يا إلهى...

هذا البلد بستان كبير مفتوح وارف الظلال.

وجالت بذهنى الخواطر عما يجعلها فقيرة، برغم هذه الإمكانات الهائلة البادية على أول الطريق.

- هل بلادكم كلها هكذا يا على؟

- هكذا وأحسن، وإذا تأملت اسم غينيا باللغة العربية ستجده يعني الغنى والثروة، بلادنا فيها إمكانات زراعية وغابية ومائية لا مثيل لها تقريبا فى أى دولة إفريقية.

- هل هذا معقول؟!

- معقول جدا، لماذا غير معقول؟!

- لماذا الناس فقراء إذن؟

- أنت تعرف ظروف الاستعمار واستنزاف الثروات الوطنية، وظروف نزاعات القبائل، وعدم وجود التشريعات التى تساند عملية التنمية.

- لابد أن أصحاب هذه الأراضى أثريا جدا؟

- ليس عندنا تقريبا أثرياء إلا التجار، فلا أحد تقريبا يملك أرضا فى غينيا، الأرض ملك الدولة، حتى لو كان أصحابها يزرعونها منذ ١٠٠ سنة.

ووجدت السيارة تروح يمينا ويسارا على الطريق.

- ماذا جرى يا على؟

- أشعر بقليل من الدوخة.

- يجب أن توقف السيارة.

- الطريق خال، ولن تكون هناك مشاكل إن شاء الله.

- الأفضل أن تقف.

ونزل على من السيارة وهو يمسك مقدمة رأسه بيده، وقلت له:

- اجلس مكانى وسأتولى القيادة.
- أتعتقد أن هذا ممكن؟!
- أنت معى، وسنتعلل بظروفك لو اعترضنا أحد من الشرطة.
وقدت السيارة إلى قرب الحدود، وكان على قد استرد العافية.

على حافة الموت

بعد رحلة المائة ميل اقتربنا من الحدود، وبدأ اعتراض السيارة فى نقاط تفتيش شرطية وعسكرية.

وفى كل نقطة منها يخرج على بطاقته الصحفية فتسير الأمور سيرا حسنا، إلى أن صرنا على خط الحدود وسط اللاجئين الذين يتدفقون كالنهر، ويروون حكايات يشيب لهولها الشعر.

***

هل كنت أعرف مسبقا أن دخول سيراليون يبدو مستحيلا؟!

نعم، وكان الدليل على ذلك هذا المقال الذى نُشر فى «الأهرام» فى أول أيام وصولى إلى كوناكرى:

« محمد لامين » صبى سيراليونى عمره سبعة

عشر عاما وشهور. وهو الان فى حالة من ثلاث: إما أنه يقاتل فى صفوف جيش سيراليون، أو يقاتل ضده، أو راح ضحية القتال.

هذا الفتى تحدث فى «فريتاون» عاصمة بلاده إلى مراسلة صحيفة «الجارديان» البريطانية «كلوديا ماكيلروى» فى نوفمبر الماضى (عام ١٩٩٦) عن تاريخه «القتالى» باعتباره واحدا من ألوف الأطفال الذين خاضوا الحرب الأهلية التى استمرت خمس سنوات بين الجيش وقوات التمرد المعروفة باسم «الجبهة الثورية المتحدة».

ووقت اللقاء كان رئيس البلاد أحمد تيجان كابا اللاجىء فى غينيا منذ الانقلاب العسكرى الذى أطاح بنظامه يوم ٢٥ مايو الماضى (عام ١٩٩٧) قد توصل إلى اتفاق سلام مع زعيم الجبهة الثورية المتحدة فودى سانكو (المحتجز بفندق فى أبوجا عاصمة نيجيريا)!

فماذا قال الفتى؟

قال إنه انضم إلى الجيش متطوعا حين كان عمره ثلاثة عشر عاما ليثأر لمقتل أبيه وأمه، وإخوته الأربعة (أولاد وبنات) بأيدى قوات التمرد. وأضاف قائلا: «صار القتال متعة عندى، وكلما رأيت منظر الدم زاد حماسى للقتل»!!

ولم يكن الولد بكاذب، فقد سقط فى هذه الحرب خمسون ألف قتيل، وتشرد نصف الشعب الذى لا يزيد تعداده على ٤,٥ مليون نسمة، وأصاب الدمار اقتصاد البلاد القائم على تعدين الألماس والبوكسايت وزراعة الكاكاو.

ولم تكد تمضى شهور على عودة «محمد لامين» إلى المقعد الذى كان قد تركه فى المدرسة - بانضمامه إلى الجيش عام ١٩٩٣ - حتى سقطت البلاد مرة أخرى فى أتون الحرب بين الجيش والمتمردين.

ولما وقع الانقلاب الأخير فى سيراليون - وهو الثالث فى غضون ٥ سنوات - كانت البداية أسوأ من السوء نفسه. فقد تمثلت فى حرق البنك المركزى

وسط ثورة سلب ونهب عارمة.

وقد كانت الحرب الأهلية كلها فصولا من السلب والنهب الذى لا ينتهى، برغم إجراء انتخابات ديمقراطية فى مارس ١٩٩٦، وهى الانتخابات التى جاءت بأحمد تيجان كابا إلى السلطة.

وكانت الفوضى الناجمة عن الانقلاب قد أدت أيضا إلى إطلاق سراح قرابة ٦٠٠ مسجون من أخطر العناصر الإجرامية، فعاثوا فى المدينة فسادا... قتل ونهب وسطو واغتصاب للمواطنين والرعايا الأجانب، من مختلف الجنسيات.

وزاد الأمر سوءا دخول عناصر الجبهة المتمردة العاصمة بعد أن أعلن قادة الانقلاب تحالفهم معها، فأصبح كل من بيده سلاح - مشروع أو غير مشروع - طرفا فى هذا الجحيم المنطلق.

وبالتالى كانت الإدانة الإفريقية والدولية للانقلاب الذى قاده ضباط صغار واسعة النطاق، لأن الانقلاب كان السبب فى إطلاق هذا الجحيم من عقاله. فقد كان

المأمول أن ينجح الرئيس تيجان كابا فى تطبيق اتفاق السلام مع سانكو، وأن يوقف ثورة السلب والنهب المستمرة منذ سنوات.

ولأن نيجيريا ودولا أخرى فى غرب إفريقيا كانت تحتفظ ببعض قوات لها فى عاصمة سيراليون لتأمين النظام الديمقراطى فقد لاحت بادرة إمكان استخدام القوة العسكرية لوأد الانقلاب.

ولكن نيجيريا التى قصفت معاقل قادة الانقلاب فى العاصمة من بوارج حربية فى المحيط الأطلنطى كادت تمنى بهزيمة مخجلة حينما أسر الانقلابيون المئات من جنودها الذين كانوا يحرسون النقاط الاستراتيجية فى المدينة.

وبالرغم من تأييد إفريقيا والعالم لمبدأ إحباط الانقلاب ظهرت علامات المعارضة لاستخدام القوة العسكرية، باعتبار أن أى عمل عسكرى ينطوى على إزهاق الأرواح ومزيد من الدمار.

ولا يزال الصراع مفتوحا...

هذه هى إفريقيا التعيسة التى تحترق من شرقها إلى غربها.

أما رأس ما يسمى «النظام العالمى الجديد» وهو الرئيس بيل كلينتون فقد كان رده العملى الوحيد على الكوميديا السوداء فى سيراليون برقية من أربعة أسطر إلى الكونجرس يخطره فيها بأنه حرك قوات مشاة البحرية الأمريكية إلى فريتاون لإجلاء الرعايا الأمريكيين... وغير الأمريكيين إن تيسر!

ولو شاء القدر أن أدخل سيراليون، وأن أعود سالما، فسوف أنقل صورة أشد قتامة.

الطيب والردىء

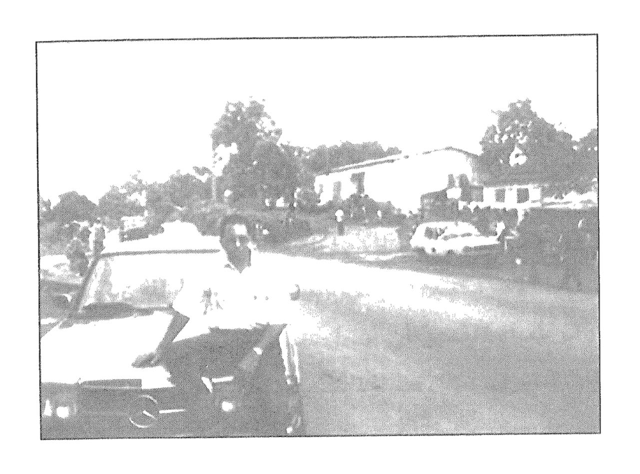
نقلت لقراء «الأهرام» الصورة التى وعدت بها برغم أننى لم أدخل سيراليون بالطريقة التى أردتها. وثبت لى فى كوناكرى أن البوارج الحربية التى حركها كلينتون لنقل الفارين كانت ذات فائدة كبرى للمصريين وغير المصريين، وكذلك البوارج الحربية الفرنسية. فبدونها كانت معاناة الأجانب ستتضاعف بالتأكيد. بل كان ممكنا أن يسقط

منهم قتلى وجرحى.

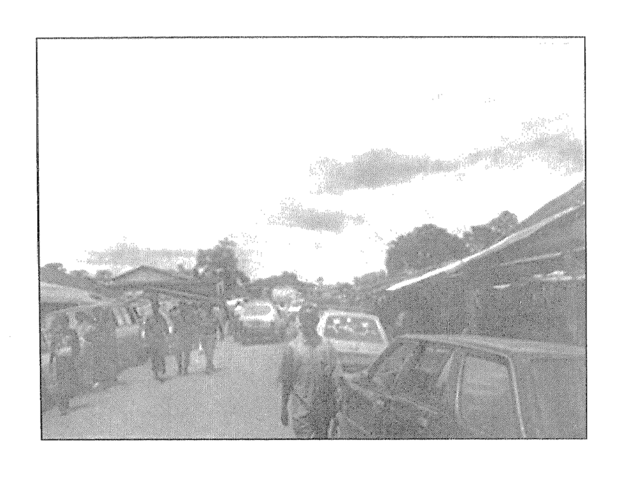
وقال لى الدكتور محمد صلاح دياب (سودانى) مدير برنامج الغذاء العالمى فى سيراليون: التسهيلات فى حاملة طائرات الهليكوبتر الأمريكية التى نقلتنى إلى كوناكرى مذهلة، إنها مكونة من ١٢ طابقا، وتحمل قرابة ٢٥٠٠ شخص.

- لكن لماذا وقع الانقلاب يا دكتور صلاح؟

- لأن شعب سيراليون كان مستعجلا جدا، كان الناس يتصورون أن الديمقراطية ستأتى فورا بكل شىء طيب، وستعالج كل شىء ردىء. وكان هذا التصور غير سليم بالمرة.



قطعت المرسيدس حوالى ١٠٠ متر بعد المحل الذى استأجرتها منه لأسافر بها إلى سيراليون، ولما تذكرت الصورة قلت لعلى بنجورا الذى كان يقودها: قف، وأعطيته الكاميرا



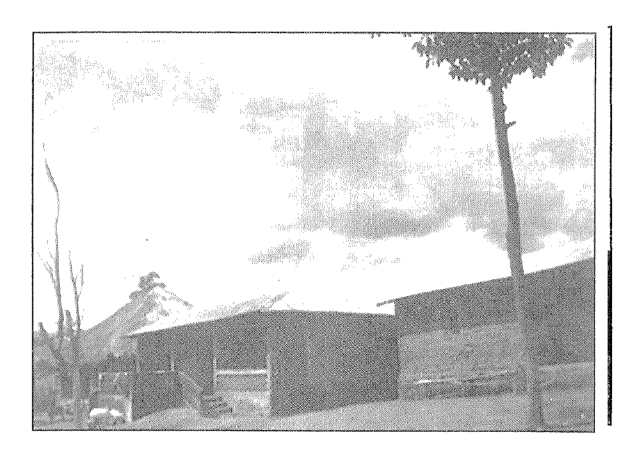
اللاجئـون من سيـراليون علـى الحـدو دمع غـينيا... نهـر يجرى بالألـم والـدموع مـن شـدة الـهول فـى عـاصمـة بلادهـم وفراق العـجائز من الأهـل والـشـيـوخ الـذين لـم يتـحملوا مـشقـة الـسـفر وأهـوال الـطريق



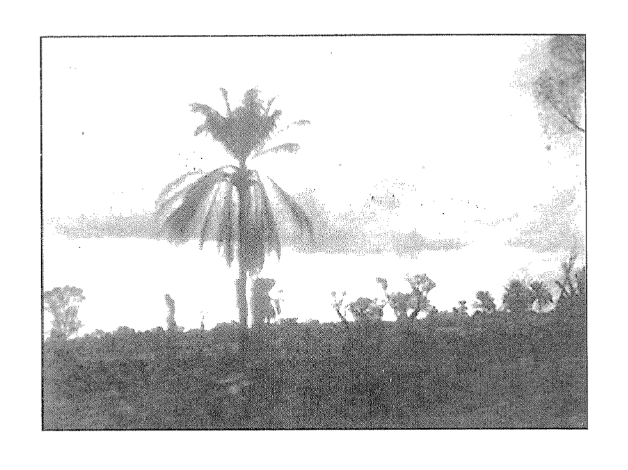
اللاجئون الذين تراهم هم أثرياء القوم، فأى فقير لا يستطيع أن يدفع ٢٠٠ دولار أمريكى تكاليف الرحلة من فريتاون إلى كوناكرى...
هكذا قال هذا الرجل الذى ترك ماله وأعماله وفر هاربا بحياته



أقضم ساندويتشا فى طريق العودة من الحدود السيراليونية الغينــية، أما الطعــام الآخر الذى أمــامى فهو لعلــى بنجورا الذى تحول إلى مصور صحفى...

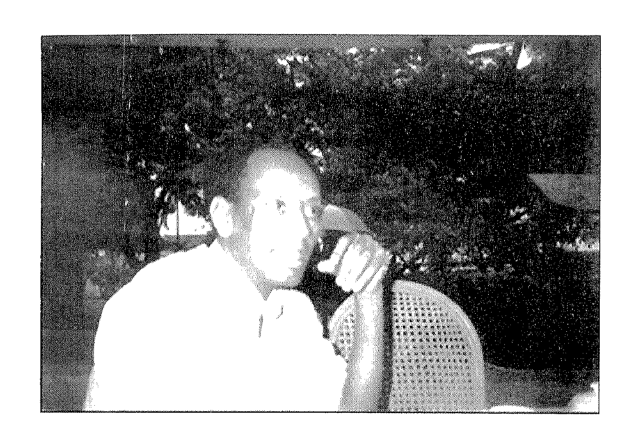


ريف إفريقيا السوداء... بسيط جدا.. مسكين جدا... يعانى كثيرا من حرارة خط الاستواء، ولكن الله يجعله لطيفا باردا حين يتوقف المطر ويظلل الناس السحاب



هذه الطبيعة جميلة جدا لأنها بكر...

ومع ذلك يجور الناس عليها ويستغلونها بغير قواعد صحيحة أو نظام معلوم



د. محمد حاج دياب: هذا الشعب مستعجل جدا...
السيراليونيون تصوروا أن الديمقراطية تأتى فورا بالخبز والزبد... وهذا غير صحيح



فلاحة غينية... حركة ونشاط وتنقل بين البيت والحقل، ولكن ظروفا كثيرة تحول دون تحقيق التقدم الزراعى الذى يعتبر أساسا لأى تحسن فى مستوى المعيشة

هيا بنا نستثمر

أشعر بأنك تسأل عن سر التناقض الجوهرى بين ضخامة ثروات غينيا الطبيعية من جهة، والبساطة الشديدة ورقة الحال التى عليها شعب هذا البلد من الجهة الأخرى. ولكى أشفى غليلك أستأذنك فى قراءة هذا المقال الذى أعددته ولم ينشر، عن هذه القضية.

***

منظمة الأمم المتحدة للأغذية والزراعة «فاو» تقسم العالم فى مجال نشاطها إلى خمسة مناطق، تحتفظ فى كل منطقة منها بمكتب. ومكتبها فى أوروبا، وهو المكتب الرئيس، موجود فى روما. ويوجد مكتبها لمنطقة أمريكا اللاتينية فى سانتياجو عاصمة شيلى.

وفى بانكوك، عاصمة تايلاند، يوجد مكتبها لمنطقة آسيا والمحيط الهادى.

أما مكتبها لمنطقة الشرق الأوسط فهو فى القاهرة، وتشمل هذه المنطقة، فى تقسيم الفاو للعالم، باكستان وقبرص، إلى جانب دول المشرق والمغرب العربيين.

ومهمة المنظمة، الموكولة إليها من الأمم المتحدة، هى العمل ـ وفق

برامج معينة ـ على زيادة إنتاج الغذاء فى العالم. ولما كانت مهمة المنظمة على هذا النحو فقد كان ضروريا أن تكون لصيقة بالزراعة التى هى أساس إنتاج الطعام، وهذا واضح من اسمها «منظمة الأغذية والزراعة».

فى مجال حساس إذن تعمل منظمة الـ «فاو» خاصة فى وجود مئات الملايين من الجوعى فى العالم، وكذلك فى وجود أكثر من مليار شخص فى قارات مختلفة يشبعون بملء البطون فقط، فطعامهم غير متنوع، وبالتالى غير صحى، فتنال منهم الأمراض فى مراحل مختلفة من العمر.

وما أتعس المريض، إنه مشكلة لنفسه ومشكلة لوطنه.

ولكن أين يوجد مكتب منظمة الـ «فاو» فى إفريقيا الواقعة جنوبى الصحراء الكبرى، أو إفريقيا السوداء؟

إنه موجود فى كوناكرى عاصمة غينيا.

لماذا كوناكرى؟

لأن إمكانات غينيا الزراعية هائلة، ولأن المُستغل من هذه الإمكانات ضئيل للغاية.

ومدير مكتب الـ «فاو» فى كوناكرى يسمونه هناك «البلدوزر» لأنه يتعامل مع دوائر الحكومة بصراحة تامة حين يطرح المشكلات التى تصادفه، وهو يعمل على تحقيق أهداف المنظمة.

إنه كما سمعت رجل صريح جدا، وما فى قلبه على لسانه.

وما سمعته عنه، فضلا عما سمعته عن إمكانات هذا البلد الزراعية، جعلنى أسعى إلى لقائه حين كنت فى زيارة غينيا.

وزاد تطلعى إلى لقائه حين علمت أنه كان - قبل مهمته فى غينيا مباشرة - نائبا لمدير المكتب الإقليمى لمنظمة الـ «فاو» فى القاهرة.

فى اللحظة الأولى من اللقاء فاجأنى «محمد قُعيب» وهو من تونس، بسيل من المعلومات عن الثروة الزراعية الهائلة فى غينيا.

● الأرض الزراعية متوافرة بمساحة هائلة، إذ تبلغ ستة ملايين هكتار فى مقابل حوالى ٤ ملايين هكتار فى مصر. والمساحة المزروعة فى غينيا لا تزيد على مليون هكتار بينما تزرع مصر كل المتاح لها من الأرض الزراعية.

● الأمطار التى تسقط على هذا البلد هائلة، وحين تقاس بالملليمتر تكون بين ٤٠٠٠ و٦٠٠٠ ملليمتر من المياه فى السنة، بينما المياه المتاحة لمصر من نهر النيل والآبار ١٥٠ ملليمترا فى السنة. وبمقياس آخر تسقط ٦ أمتار مكعبة من المياه سنويا على كل متر مربع من الأرض فى غينيا!

● برغم هذه الموارد الهائلة فإن الأرض تزرع بمحصول واحد تقريبا فى غينيا، هو الأرز. وفى المقابل تزرع الأرض فى مصر ٣ مرات فى السنة، بمعنى أن استغلالها يتم بنسبة ٣٠٠٪.

● برغم هذه الموارد الهائلة من الأراضى والمياه تستورد غينيا (تعدادها ٦ملايين نسمة) قرابة ٤٥٪ من الأرز الذى يعد الغذاء

الأول للشعب. وتدفع غينيا فى مقابل ما تستورده قرابة ١٨٠ مليون دولار. أما باقى احتياجاتها من الأرز (٥٢٪ من الاستهلاك) فيأتى مما تزرعه، وما تحصل عليه من معونات.

● زاد متوسط استهلاك الفرد من الأرز من ٥٢ كيلوجراما فى السنة عام ١٩٨١ إلى ٩٢ كيلوجراما عام ١٩٩٧، وذلك بسبب عدم تنوع الوجبات الغذائية، ولأن الغينيين توقفوا عن زراعة محاصيل أخرى معاونة مثل الأذرة. ولو استمر معدل الزيادة فى الاستهلاك على النحو الذى حدث فى السنوات الماضية فمن المتوقع أن تصل قيمة واردات الأرز فى السنة إلى ٣٠٠ مليون دولار.

● منذ سنوات كانت غينيا تصدر كميات كبيرة من الموز والأناناس والمانجو، وهى فواكه موجودة من تلقاء الطبيعة التى جعلت هذا البلد بستانا كبيرا. فالأمطار تسقط بمعدلات هائلة، كما سبق القول، والأرض عالية الخصوبة موجودة بكثرة كما سبق القول أيضا. وحين مررت فى هذا البلد بالسيارة فى الطريق إلى سيراليون شعرت بأننى أسير فى بستان كبير حقا.

ماذا جرى لهذه الصادرات من الفواكه؟

انخفضت بصورة رهيبة بسبب ظهور الحشرات القارضة، وأكثرها تأثيرا ذبابة مثل ذبابة البحر الأبيض المتوسط، وتتسبب فى ظهور بقع سوداء على الثمرة فترفضها الأسواق فى الدول المتقدمة. وقد اتجهت الدول الأوروبية إلى دول أخرى فى غرب إفريقيا لاستيراد الفواكه.

وهناك تجار من هذه الدول يذهبون إلى غينيا، وينتقون الثمار الجيدة ويصدرونها - بعد تغليفها - من بلادهم باعتبارها من إنتاج البلاد ذات السمعة الطيبة فى هذا المجال.

● وعن الثروة الحيوانية حدث أيضا ولا حرج، فالمواشى لا تربى فى اسطبلات على الطريقة المتقدمة، وإنما هى هائمة هنا وهناك فى الأرض التى تغطيها الحشائش من أنواع مختلفة. وقطعان الماشية لديها عدد معين من الشهور تتاح لها فيها حرية التنقل من مكان إلى مكان، تبدأ فى سبتمبر وتنتهى فى يونيو. وبالتالى فإن إنتاج الألبان معدوم تقريبا، إذ لا يزيد على نصف لتر فى اليوم للبقرة أو الجاموسة.

● الوضع أسوأ من ناحية الثروة الداجنة التى انتشر إنتاجها بطريقة منظمة فى العالم كله إلا فى هذه الدولة ومثلها، فالإنتاج يكاد يكون معدوما.

● فيما يتصل بالثروة السمكية، المشاكل كثيرة أيضا. فالمياه الإقليمية بها كميات كبيرة من الأسماك، ولكن هناك أيضا عددا كبيرا من سفن الصيد العملاقة الآتية من دول أجنبية تصيد فى هذه المياه بطريقة عشوائية جائرة، تشمل دخول مناطق الصيد المصرح بالصيد فيها للقوارب الصغيرة فقط. وبإمكانات بسيطة يجمع المواطنون محصولا من السمك لا يزيد على ٢٥ ألف طن سنويا.

هذه الحقائق توضح أن هناك مشكلة كبيرة، ليس السبب فيها موارد الطبيعة على كل حال. إن من الممكن أن تكون المشكلة ناجمة

عن نقص فى الأموال المطلوبة لتجويد الإنتاج وتوسيع رقعته وتحديث وسائله. ومن الممكن أن تكون ناجمة عن غياب السياسات الملائمة. ومن الممكن أن تكون ناجمة عن طبيعة بشرية أميل إلى السكون والرضا بالأمر الواقع، وأبعد عن الحركة والطموح والتطلع.

ومن الممكن أن تكون المشكلة ناجمة عن هذه الأشياء مجتمعة.

إذا كانت المشكلة ناجمة عن نقص فى الأموال فإن الحل هو استجلاب الأموال الأجنبية الباحثة عن الاستثمار، وإذا كانت ناجمة عن غياب السياسات الملائمة فإنها حينئذ معلقة فى رقبة حكومة البلاد، وإذا كانت بسبب سكون ورضا بالأمر الواقع فإنها تكون مشكلة مجتمع، قليل - أو معدوم - الطموح.

إذا كان الأمر هو الحالة الأولى وحدها وجب علينا فى مصر والبلاد العربية أن نرفع شعار «هيا بنا نستثمر فى إفريقيا».

فالموارد الطبيعية الهائلة تنبىء بأن عوائد الاستثمار سوف تكون هائلة أيضا، وضخامة الموارد تنبىء بأن المشروعات الاستثمارية سوف تكتسب صفة الضخامة بمرور الوقت، والمشروعات الاستثمارية الضخمة توفر فرص عمل كبيرة لأبناء البلد الذى تأتى منه الأموال، وكذلك أبناء البلد الذى يستقبلها. وزيادة المال فى أيدى أبناء البلد الذى يستقبل الاستثمار تؤدى إلى زيادة الاستيراد من الخارج، وهو ما يعنى أن فرص التصدير من البلد الذى تأتى منه الأموال المستثمرة كبيرة أيضا.

وإذا كان الأمر هو الحالة الثانية، أى غياب السياسات الملائمة فسوف يكون شعارنا «هيا بنا نرى».

وما أقصده هو أن تذهب بعثات من المسئولين ورجال الأعمال فى بلادنا لتكتشف الفرص المواتية، ولتسأل: هل من الممكن تعديل هذه السياسة أو تلك، من أجل روح جديدة من المشاركة والتعاون وتبادل المنافع؟

وإذا كان الأمر هو الحالة الثالثة فليس هناك ما يدعو إلى أى تحرك أو اهتمام.

على كل حال، هيا بنا نفحص هذا الأمر.

الأرض الزراعية فى غينيا لا تزال ملكية عامة، ومن النادر أن يستطيع مواطن أن يقول إن هذه الأرض أو تلك ملك له، حتى لو ظل يزرعها وينتفع منها عشرات السنين. وهو لا يستطيع أن يرفع هذا الادعاء فى وجه الدولة، حتى لو كان قد واصل زراعة الأرض بعد آبائه وأجداده. والأمر السائد هو أن سكان كل قرية ينتفعون بصورة أو بأخرى بالأراضى والبساتين الطبيعية القريبة من قريتهم بطريق غير رسمى.

ومنذ فترة غير بعيدة جاء إلى إحدى القرى شخص غريب، وزرع مساحة كبيرة من الأرض وجودها، فصارت مميزة تماما عن غيرها من الأرض، بل صارت بها الخضراوات التى تندر زراعتها فى غينيا. وبعد وقت استدل أحد أبناء القرية على أصل هذا الشخص فإذا هو

نيجيرى، فما كان من المستدل إلا أن أخذ الأرض وما عليها.

ومادامت الأرض الجيدة طيبة فى عيون أهل البلد فلماذا لا يجودونها ؟ لأن وضعا بهذا الشكل العرفى لملكية الأرض يقلل الاهتمام بتجويدها، وبالتالى يتدنى إنتاجها. فالذى حاز أرض النيجيرى يمكن أن يجد نفسه بعد وقت أمام إحدى سلطات الدولة التى تأخذها منه.

وهناك قسم كبير من الأرض الزراعية الجيدة يسمى «المنجروف» (بفتح الميم) وهو مغمور بخليط من مياه الأنهار والمحيط، ويحتاج إلى أموال كثيرة لاستصلاحه.

ومن الواضح من المثال السابق أن هناك أمرين مطلوبين هما سياسات ملائمة، وأموال كثيرة.

ومن ناحية السياسات الملائمة طلبت جهات كثيرة من حكومة غينيا إجراء تعديلات على السياسة القائمة، تشمل وضع قانون للملكية الزراعية، فى جانب كبير من الأرض على الأقل. وكان من هذه الجهات البنك الدولى، وصندوق النقد الدولى، ومنظمة الـ «فاو» التى صاغت مشروع قانون ناقشتها مع المسئولين الغينيين.

وطلبت المنظمة من الحكومة الغينية أيضا إنشاء جهاز إقراض زراعى على مستوى الدولة مثل بنك التنمية والائتمان الزراعى فى مصر. وبادرت الـ «فاو» بتقديم قروض للزراع، ولكن استرداد هذه القروض غير مضمون لأن القرض يموت بنهاية جمع المحصول من

المشروع، وانتقال صاحبه إلى أرض أخرى أو قرية أخرى.

جهات أخرى مثل الصين اختارت، بدلا من طلب تعديل السياسات، الاتفاق مع الحكومة الغينية على اقتطاع مساحات من الأراضى لإقامة مزارع كبيرة تستخدم فيها الآلات الحديثة.

واختارت منظمة الـ «فاو» طريقة إنشاء مزارع نموذجية تطبق فيها أساليب الزراعة الحديثة فى مجال زراعة الأرز بطريقتين: الأرض المغمورة، والزراعة على الأمطار.

وبعد سنين من العمل استطاعت المنظمة أن تزيد الإنتاج فى الأراضى المغمورة من ٢,٥ طن إلى ٥,٥ طن للهكتار. وزاد الإنتاج فى الأرض التى تعتمد على المطر من متوسط ٩٠٠ كيلوجرام للفدان إلى متوسط ١٩٠٠ كيلوجرام.

ويقول لى محمد قعيب: لو تم تعميم هذا النموذج من الزراعة لأمكن مضاعفة الإنتاج، وبالتالى الإقلال كثيرا من الكميات المستوردة.

والمشاكل الأخرى كثيرة:

●● نقص فى البنية الأساسية، خاصة فى المناطق الغابية التى يمكن أن تعطى محصولا عاليا من الأرز.

●● عدم وجود مؤسسة متكاملة للتسويق.

●● نقص الخدمة الصحية الذى يتسبب فى ضعف خطير فى الإنتاج.

●● لا توجد أرصاد جوية تقدم للزراع والصيادين معلومات كافية فى بلد يتغير مناخه بسرعة البرق، من الهدوء الشديد إلى العواصف الرعدية، ومن السماء الصافية ذات الشمس المحرقة إلى الغيوم الكثيفة التى ترقق الهواء وتجعله نسيما.

●● القطع الجائر للغابات الذى يصيب التربة بانهيارات شديدة الضرر، ويغير طبيعة المناخ.

●● غياب الحماية الملائمة للأنهار.

بعد الفحص يتضح أن المشاكل متداخلة: نقص فى المال، ونقص فى السياسات، ونقص فى البنية الأساسية، ونقص فى الهمة والعزم.

فهل من الممكن أن نرفع فى مصر والعالم العربى، والأمر كذلك، شعار «هيا بنا نستثمر فى إفريقيا» ؟

الإجابة نعم.

أولا ـ لأن حل مشكلة من المشكلات الأربع ينقل الثلاث الأخرى إلى الاتجاه الإيجابى، بدلا من أن تظل فى طريق السلبية، بما ينطوى عليه هذا الطريق من مخاطر ومضاعفات.

ثانيا ـ لأن الأرض هناك تقبل الوجود العربى، بل إنها ترحب به بشدة انطلاقا من قاعدة التراث المشترك، والتقاليد المتشابهة، والثقة التى توطدت بإمكان التعاون معا، خاصة بعد مرحلة الكفاح المشترك ضد الاستعمار الذى نهب ثروات هذه البلاد المعدنية، وتركها بلا مشروعات ذات شأن: زراعية، أو صناعية، أو تعليمية، أو تثقيفية.

ثالثا ـ السوق الإفريقية تحب السلع المصرية والعربية، ولا تنفر منها إلا إذا كانت سيئة الإعداد بدرجة تنال من احترام المستهلك.

وقد كان من الدلائل البارزة على ذلك معرض المنتجات المصرية الذى نظمته مؤسسة «الأهرام» ـ التى أتشرف بالانتماء إليها ـ فى كوناكرى فى عام ١٩٩٦، وقد نفدت المعروضات عن آخرها، وبلغت حصيلة مبيعات المعرض الذى أقيم بقاعة العرض فى البرلمان الغينى ١٥ مليون دولار.

وقال لى السكرتير الأول بالسفارة المصرية خالد نادر إن أصدقاء مصر كثيرون هنا، وقد ساهموا بنشاط كبير فى الدعوة للمعرض والمساعدة فى تنظيمه.

فهيا بنا نستثمر فى غينيا، وغيرها من دول إفريقيا.

صدق أو لا تصدق!

فى غينيا، هذه العبارة تشرح واقع الحال فى كل اتجاه تقريبا.

فهل تصدّق أن جامعة جمال عبدالناصر فى كوناكرى، وهى أول جامعة أنشأها الرئيس الغينى أحمد سيكوتورى بعد الاستقلال، لا توجد بها كلية أو قسم للغة العربية؟

صدّق!

هل تُصدّق أن عدد الجالية المصرية فى كوناكرى، وقت زيارتى، كان ٦٠ شخصا، منهم ٣٥ أعضاء البعثة الأزهرية، بينما لنا ارتباطات سياسية وتاريخية ودينية وثقافية هائلة مع هذا البلد الإفريقى المهم؟

صدّق!

هل تصدق أن هذا العدد من المصريين بمن فيهم رئيس وأعضاء البعثة الدبلوماسية يكفى لتحقيق الأهداف التى نسعى إلى تحقيقها من علاقاتنا التاريخية والسياسية والثقافية بالدول الإفريقية؟

لا تصدق!

هل تصدق أن المسلمة يمكن أن تتزوج مسيحيا فى كثير من الدول

الإفريقية جنوبى الصحراء الكبرى؟

صدّق!

والسبب هو أن الارتباط، أو الانتماء القبائلى، أقوى من الانتماء الدينى فى كثير من المجتمعات الإفريقية، كما أن المفاهيم الخاطئة عن الإسلام منتشرة فى بعض المجتمعات. وفى كثيز من الأسر تعيش الديانتان تحت سقف واحد.

الفصل الثالث

فى تركيا

- كم عددهن؟

- ١٤ امرأة، وكل منهن أجمل من الأخرى، وأكثر عريا.

- إذن هيا بنا.

وأجمل وأرقى ما تراه فى اسطنبول مساجدها القديمة الشهيرة... فن وعمارة رائعة... جلال وبهاء.

سبحان الله... يجمع بغير أن يوفق إذا شاء.

المرأة والدين والسياسة

حين تعيش فى تركيا تشعر بأنك قريب من قطعة من قلبك بعيدة عنك.

وتركيا قطعة من قلوبنا: بالتاريخ، والجغرافيا، والدين، واللغة، والعادات والتقاليد، وإلى حد ما بطريقة الحياة، خاصة فى الريف، أو - بمعنى آخر - فى غير أنقرة واسطنبول وأزمير.

حتى فى أنقرة واسطنبول تصافح أذنيك فى مواقيت معلومة كلمات النداء الجميل: الله أكبر، الله أكبر.

وتحمد الله حينئذ على أن شيئا جميلا كالصلاة بقى إلى جوار الحانات، والكاسيات العاريات، ومرتكبى ومرتكبات الحركات الغريزية فى الشوارع، والحمدلله أن هذه الأعمال ليست على النطاق الأوسع.

أول مرة أزور تركيا كانت عام ١٩٩٣ فى عز القيظ (شهر أغسطس). وكانت هناك قضيتان على الساحة: المرأة والدين... وعلاقتهما بالسياسة.

كانت المرأة قد كسبت أرضا غير مسبوقة بوصول تانسو تشيلر إلى السلطة رئيسة للحكومة، وتعيين وزيرة دولة لشئون المرأة والأسرة،

واسمها توركان أكيول، فى الحكومة الجديدة. وكان الدين، أو ـ بمعنى أدق ـ الاتجاه الدينى فى السياسة والمجتمع قد بدأ يتوغل فى الشارع التركى وينتشر. وبينما كان هناك ارتياح لوصول تشيلر إلى الحكم باعتبار ذلك دليلا على أن العلمانية قطعت شوطا أبعد، كان هناك قلق من أن الاتجاه الدينى يهدد شوط السبعين عاما المنقضية من العلمانية، بالرجوع والانحسار.

وكان الأتراك يعيشون أيضا حالة من الدوار تسبب فيها انهيار الاتحاد السوفيتى، وقيام الجمهوريات الإسلامية التى تعتبر امتدادا طبيعيا لتركيا من النواحى الثقافية والدينية واللغوية.

وكان السؤال المطروح وقتذاك هو: هل تستطيع تركيا أن تمد ذراعيها حول أشقائها المستقلين حديثا، أم أن الإمكانات أضعف من ذلك بكثير، وأن مطامع الآخرين فى إمكانات هذه البلاد أكثر اندفاعا من مطامع تركيا المترددة؟

وقد جلست وراء زجاج المقهى فى الفندق الذى نزلت به فى أنقرة أرقب أحوال تركيا.

***

- احضر شايا من فضلك.

وجاء الساقى بالشاى، ومعه كشف الحساب لأوقع عليه، ثم تضاف قيمته إلى حساب غرفتى. وتأملت الكشف فإذا بياناته باللغة التركية

تشير إلى مكوناتها العربية، مثل:

الوقت Saat

التوقيع Imza

فالكلمة الأولى تعنى «الساعة» برغم أن نطقها هو «ساعت» والكلمة الثانية تعنى «الإمضاء» برغم أن نطقها هو «إمزا».

فثلث مفردات اللغة التركية عربية مثل «صناعت» أى الصناعة، و«زراعت» أى الزراعة... وغيرها.

وكانت اللغة التركية تكتب بالحروف العربية، مثلما تكتب الإيرانية والأوردية، إلى أن جاء كمال أتاتورك قبل أكثر من ٧٥ سنة، أى بعد سقوط الإمبراطورية العثمانية، وقرر - فى نطاق العلمانية والاتجاه غربا - كتابة اللغة التركية بالحروف اللاتينية.

***

وإذ أنظر أمامى أجد الشارع كما لو كان واجهة عرض كبيرة تضم أقصر الأزياء الغربية، وأكثرها كشفا للمعالم والتفاصيل الأنثوية، وإذا بعض الأولاد والبنات أكثر هياما وغراما من أقرانهم فى باريس ومدريد وواشنطن.

ولما انتهيت من تناول الشاى خرجت إلى الشارع سائرا صعودا (فالمدينة قائمة على هضاب) إلى حديقة عامة كبيرة فى وسط المدينة، على حافتها فندق ضخم.

وفى الحديقة ظهرت تركيا بشطريها: المتدين والمتعلمن. فقد رأيت بنات تركيات محجبات رقيقات، وتكلمت معهن بإذن الشاب المهذب الذى بصحبتهن. ورأيت بنات تركيات سافرات تكلمت معهن بدون إذن، وتكلمت أيضا مع الشبان الذين كانوا معهن، وكل من الجانبين يطرح قضية السفور والحجاب بما هو مقتنع به.

ولكن القضية كانت مطروحة بصورة أخرى أبعد من مجرد التدين والتعلمن، أى بصورة سياسية، إذ الحقيقة أن السافرات والمحجبات هن قشرة المجتمع التركى، وليس لحمه وعظامه.

وقد أفادتنى فى ذلك كثيرا مديرة الرابطة التركية ـ الأمريكية التى التقيت بها فى مكتبها بأنقرة. وكان شرحها مهما، برغم أنه متحيز بوضوح إلى العلمانية. فمن رأيها أن أتاتورك كان خيرا وبركة على المرأة، بدليل أن عدد النائبات فى أول برلمان تركى عام ١٩٤٥ كان ١٨ نائبة، بالمقارنة بـ ٨ نائبات فى البرلمان الذى تشكل قبل رحلتى، برغم التطور الكبير الذى تمثل فى أن تشيلر تولت رئاسة الحكومة، وبفضل علمانية أتاتورك كانت أول امرأة ترأس محكمة عليا فى دولة تركية، وكان ذلك فى عام ١٩٥٤.

ولكن الأغلبية من النساء التركيات لسن معنيات كثيرا بالسفور والحجاب، أوبالحقوق السياسية والمهنية. فهذه الأغلبية موجودة فى ألوف القرى، وكذلك فى المدن، باستثناء المدن الثلاث الكبيرة.

ومشكلة المرأة فى الريف والمدن الصغيرة اقتصادية فى الأساس،

فهناك لا تستطيع المرأة أن تدعى القدرة على الاستقلال ماديا، وبالتالى فإن التقاليد القديمة التى عمادها دور الأب والأم والإخوة فى تقرير مصير البنات هى الأساس.

ما هو إذن حل مشكلة المرأة التركية؟ وفى أى اتجاه؟

فى رأى محدثتى أن النشاط الكبير الذى كانت تقوم به قرينة الرئيس الراحل تورجوت أوزال، دفاعا عن تقدم المرأة التركية وتعليمها، لم يكن كافيا. وهى تقف أيضا ضد أن تكون هناك وزارة للنساء، مادام الرجال ليس لهم وزارة خاصة بهم. وتعتقد أن وجود قسم للمرأة فى كل وزارة سيكون أمرا مفيدا. والأهم من كل شىء هو أن تنجح الوزارات، والهيئات، والمؤسسات فى تعريف النساء ـ على نطاق واسع ـ بحقوقهن، وتعليمهن الدفاع عنها.

وتلوم محدثتى المشرع فى بلادها لأنه لم يكن قادرا ـ وقت إدلائها بهذا الحديث فى صيف عام ١٩٩٣ ـ على التصدى لقوانين الميراث المنبثقة عن الشريعة الإسلامية، أو ما تسميه ـ بغير حق ـ الثقافة التقليدية فى تركيا!!

وبينما تعارضُ المواريث طبقا للشريعة الإسلامية فإنها تؤكد أنها ترفض أن يكون للرجل حق فى الزواج من أكثر من امرأة، وتقول إن النظام العلمانى كان على حق فى إلغاء هذا الأمر!

– لكن نفترض أنك متزوجة، وأن زوجك تزوج من أخرى؟

– لن أبقى معه أبدا... الطلاق أفضل ألف مرة.

- مهما تكن الأسباب؟
- مهما تكن الأسباب.
- حتى لو كانت تخصك أنت، عجزا أو عاهة طارئة مثلا؟
- حتى لو كانت تخصنى، لكى لا تنكسر القاعدة بالنسبة للأخريات!!
- هناك رجال يقيمون علاقات خارج الزواج؟
--هذا شأنهم مادامت بعيدة عن علم الزوجة، ولا تؤثر عليها!
- ما رأيك فى عودة المرأة التركية إلى الحجاب؟
- للأسف أن هؤلاء اللاتى ارتدين الحجاب تعرضن لتأثيرات خارجية، ولست أعتقد أن هذا الموضوع يجب أن يثار فى مجتمع علمانى، مثل مجتمعنا. هذا مجتمع ديمقراطى، وكل إنسان له أن يتصرف بالطريقة التى تروق له، بشرط ألا تعمل المحجبات من أجل التأثير على المجتمع. وأى امرأة لديها اعتقاد دينى حرة فى ذلك، ولكن لا يمكن لهذه الظاهرة أن تنتشر. ولعلمك فإن الحركة الأصولية فى المجتمع لا تزيد نسبتها على ١٠٪.

(لاحظ أن التيار الدينى نما إلى درجة أن الحكومة التالية لحكومة تشيلر وشركائها جاءت دينية برئاسة نجم الدين أربكان زعيم حزب الرفاه).

- ألا تعتقدين أن هذه الظاهرة ستنتشر؟
- لا أعتقد، فالولايات المتحدة بها محجبات، ولست أرى أن لهن

تأثيرا كبيرا.

(لاحظ أيضا أن قضية الحجاب انتقلت بعد ٦ سنوات من مناقشات دوائر المثقفين إلى المناقشة العامة بعد انتخابات عام ١٩٩٩ وظهور أول نائبة فى البرلمان بالحجاب، وما أثاره ذلك من مشكلات).

- لكن تركيا فى الأساس مجتمع إسلامى؟

- تركيا تدخل تحت مفهوم البلد الإسلامى الحديث (المودرن). وبالتالى لا أعتقد أن تركيا مجتمع غربى.

- وأنت أيضا مسلمة؟

- أنا مسلمة، ولكننى لا أخفى ديانتى أو أظهرها. سبب المشكلة التى نحن فيها الآن أن الحكومات التركية المتعاقبة تجاهلت المسائل الدينية، ولم تناقشها على الملأ، وهذا خطأ فى تقديرى.

- لكنك هكذا تهربين من ديانتك؟

- الإسلام فعلا ديانة عالمية، وأنا لا أريد أن أهرب من ديانتى. أنا مؤمنة بالله وبنبيه محمد (صلى الله عليه وسلم) وأمارس شعائر ديانتى بالقدر الذى تسمح به الحياة الحديثة!!

- هل تواجه البنات التركيات مصاعب فى الزواج؟

-الزواج سهل فى المدن الكبرى، ولكنه مازال مرتبطا بالتقاليد والعادات فى الريف، وهذه علامة استفهام، حتى فى المدن مازال بعض الأسر يتولى ترتيب الزواج.

- هل تؤيدين حياة الولد والبنت معا بدون زواج؟

- لا أظن أن الثقافة التركية تسمح بذلك، ولا أؤيده، ولكن هناك من يفعلونه فى اسطنبول.

- هل تؤيدين صدور قانون يمنع الحياة بين الأولاد والبنات دون زواج؟

- أنا لا أريد إطلاقا أن يكون هناك أطفال غير شرعيين، ولكن بخلاف ذلك هم أحرار!!

- ألا توجد مثل هذه الظاهرة فى أنقرة؟

- موجودة، ولكنها حالات استثنائية. هناك فعلا لقاءات بين الشبان والبنات، وهناك ارتباط، ومواعيد غرامية، وأنا أؤيد هذا قبل الزواج، لا أعتقد أنه يجب أن تكون هناك قيود!!

- لماذا زادت نسبة الطلاق فى تركيا ؟

- نسبة الطلاق زادت فعلا بصورة كبيرة جدا ، ولم يكن الأمر على هذا النحو منذ عشر سنوات، لأن قدرة النساء كانت محدودة على الاستقلال ماديا . فكثير من النساء يستطعن اليوم التخلص من الزواج السيىء سعيا إلى زواج أسعد، أو أفضل.

- هل توجد فى المجتمع التركى ظاهرة الانفصال؟

- موجودة فعلا، ويقضى القانون بأن الانفصال ٣ سنوات يؤدى إلى الطلاق، وقد عارضت نساء كثيرات تخفيض هذه المدة إلى سنة، ولكننى أؤيد التخفيض حتى يستطيع الرجال والنساء بدء حياة جديدة فى وقت أسرع.

- هل تعتبرين نفسك من عناصر الحركة النسائية التى شهدتها الولايات المتحدة، ومجتمعات غربية أخرى، فى الستينيات؟

- أنا مهتمة بقضايا المرأة، ولكننى ضد الحركة النسائية، ولا أريد، ولا أحاول تغيير الثقافة التركية.

- أنت إذن تؤيدين الحياة الأسرية المترابطة؟

- وأسعى إلى أن تكون أفضل مما هى عليه الآن، وأنا أعارض المنظمات النسائية التركية التى تعمل بطريقة مثيلاتها الأوروبية والأمريكية. ولعلك تعلم أن المرأة عندنا هى القائد فى الأسرة، ولكن من وراء ستار، وهذا من تقاليد الثقافة التركية. وإذا كانت هناك زوجة ناجحة فهناك زواج ناجح.

- هل تعتقدين أن هناك ما يمكن أن تقوليه لنساء مصر؟

- أقول لهن يجب أن تؤمن بمفهوم حديث للإسلام، لكى تأخذن مكانكن فى المجتمع، ويقع ٥٠٪ من أداء هذا الواجب على عاتق النساء باعتبارهن نصف المجتمع. ويجب أن تكون مصر وتركيا رائدتين فى هذا المجال، ولكن فى نطاق التقاليد والتراث، فأنا لا أطلب منهن علاقة حميمة مع الثقافة الغربية.

***

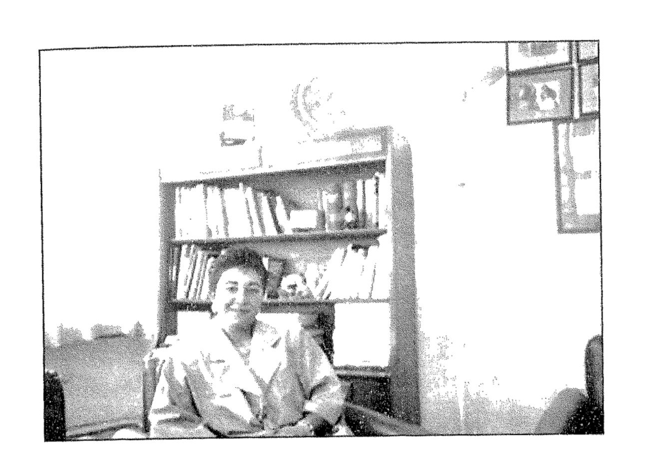
شكرا للصحفية التركية الشابة نظلان التى كانت وراء ترتيب هذا اللقاء.



تركيا الإسلامية.

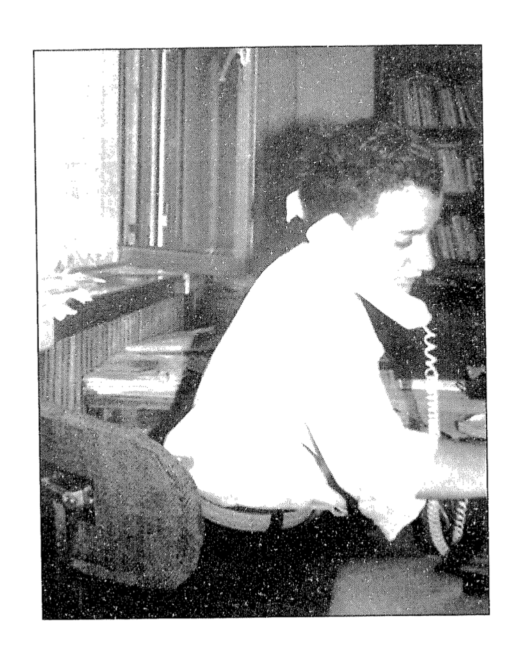


تركيا العلمانية



لا أوافق أبدا على زواج الرجل من امرأتين مهما تكن الظروف والأسباب... الطلاق أفضل ألف مرة!

توقيع: مديرة الرابطة التركية ـ الأمريكية فى أنقرة



نظلان... صحفية في جريدة "حريت" أي "حرية" ولكن بالتاء المفتوحة على الطريقة التركية مثل "همت" من "همة" و"عفت" من "عفة" و"جودت" من "جودة" و"صفوت" من صفوة

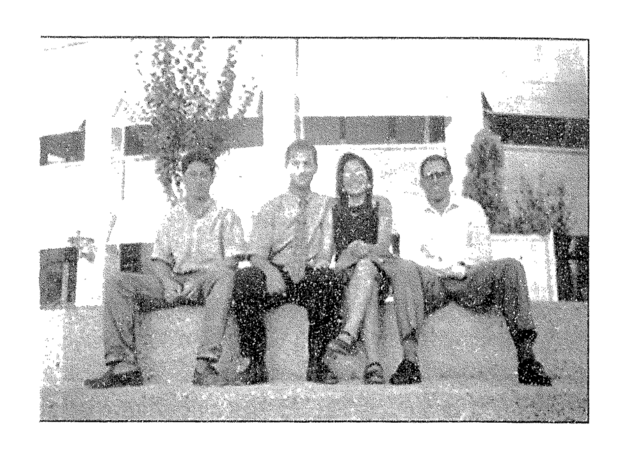


فى حديقة عامة بأنقرة..

- هل تسمحون لى بالتقاط صورة لكم؟

- تفضل، على الرحب والسعة.

- إذن ابتسموا..

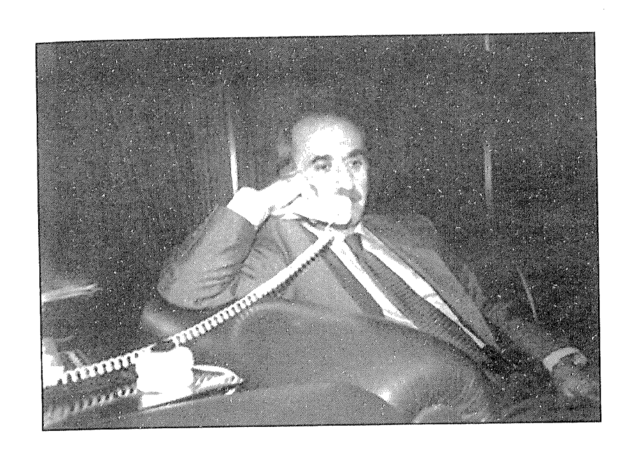


- هل تسمحون لى بالتقاط صورة معكم؟

- بكل سرور.

وكان دليل سرورهم أن أحدهم قام ليلتقط الصورة، وأن الثانى وضع يده على كتف خطيبته، وأنها وضعت يدها على ركبته.

وقال الثالث: يظهر أنك صحفى "شاطر"!



فى نهاية حديث أجريته مع وزير الخارجية التركية حكمت شتين طلبت منه التقاط صورة له وهو يتحدث بالتليفون. رفع السماعة وانتظر إلى أن التقطت الصورة...

أدب وذوق وأخلاق



أقرأ صحيفة ديلى نيوز» التركية فى اسطنبول



وأقرأ صحيفة "الأهرام الدولى" أيضا

الطابور الروسى!

انتهيت من مقابلاتى السياسية وتأملاتى فى أنقرة، وسافرت بالطائرة عائدا إلى اسطنبول لأبقى فيها يومين قبل عودتى إلى القاهرة. وكانت مقابلات العاصمة قد شملت إيردال إينونو نائب رئيسة الوزراء، وحكمت شتين وزير الخارجية، وهو شخصية ممتازة فى رأيى، إذ يتسم - إلى جانب الكفاية السياسية - بدماثة الأخلاق.

وفى اسطنبول لا مفر - فى ذلك الوقت وإلى الآن - من أن يقابلك اثنان: كردى وعراقى.

أما الكردى فهو مشرد من الحرب فى كردستان التركية، أو باحث عن عمل، ولو كان عملا وضيعا. والعراقى لاجىء أيضا من كردستان العراقية، أو من شمال أو وسط أو جنوب العراق عبر الطرق الجبلية، وهى لا تخضع منذ سنين طويلة لرقابة منظمة من جانب السلطات العراقية أو السلطات التركية.

فالمنطقة الممتدة من جنوب تركيا إلى شمال العراق - كما تعلم - منطقة فوضى واضطراب وحروب منذ أكثر من ربع قرن.

فى فندق يطل على ميدان تقسيم بأنقرة أقمت اليومين المتبقيين من الرحلة، وفى حديقة قريبة من الميدان قابلت الكردى والعراقى.

كان العراقيون مجموعة من اللاجئين ينتظرون فرج الله، أى نتيجة طلبات الهجرة التى قدموها لسفارات الدول الغربية. حالهم بائس بلا شك، بل يصل إلى حد التسول تحت مظلة الشرعية الدولية.

فمع أحدهم قرأت «بطاقة هوية لاجىء» حاصل عليها من الأمم المتحدة، وجاء فيها:

«إلى من يهمه الأمر، هذه شهادة بأن السيد بهنام بطرس حنا، وهو عراقى الجنسية، شخص يهم الأمم المتحدة أمره، ويهم كذلك المفوضية العليا لشئون اللاجئين، وأى مساعدة تقدم له ستلقى عظيم التقدير، وتنصرف مساعدته أيضا إلى من يعولهم، وأسماؤهم هى:

١ـ ....

٢ـ ....

٣ـ ....

٤ـ ....

٥ـ ....

٦ـ ....

٧ـ ....

..........إلخ.

وقال لى بهنام بينما زملاؤه يتابعونه باهتمام:

– عدد الأسر العراقية اللاجئة هنا زاد على ١٧٠٨، وزاد عدد اللاجئين الأفراد على ٥٠٠٠ شخص.

***

لا حول ولا قوة إلا بالله. هؤلاء العراقيون ترقد بلادهم على ثانى أكبر احتياطى بترولى ثابت فى العالم بعد السعودية، وتزيد على السعودية أن بها إمكانات زراعية هائلة: نهران و ٢٠ مليون فدان.

وعلى مقربة من اللاجئين - وراء الأشجار - أطفالهم البؤساء التعساء يدخنون أعقاب السجائر.

***

الكردى اسمه عبدالله.

شاب قصير نحيل متخرج فى مدرسة متوسطة فى ديار بكر عاصمة كردستان التركية، وكان يبحث عن أى شىء فى هذه المدينة الكبيرة، وبأى طريقة: عمل أو مال أو هدايا أو عطايا أو هبات أو تبرعات، أو حتى دعوة إلى مسكرات أو مخدرات.

ويتكلم عبدالله الإنجليزية بطريقة فك الخط، وبالتالى يكمل عباراته بإشارات من يديه ورأسه ورجليه. وقبل الغروب قال لى بعد أن تناولنا بعض السندويتشات، وبعض الحلوى التركية المشهورة، ودخنا عددا من السجائر:

- هل تحب أن ترى الطابور الروسى؟

- ما هذا الطابور الروسى؟

- بعد أن نذهب إلى هناك سأطلب منك أن تغمض عينيك، وسأقول لك افتحهما حين يظهر هذا الطابور.

وأدركت بحاسة سادسة أن الأمر متعلق بنساء، وعاجلت عبدالله قائلا بحدة:

- قل ما الحكاية وإلا افترقنا.

- إنهن راقصات روسيات يعملن فى ملهى ليلى قريب من هنا.

- ولماذا تصفهن بأنهن طابور؟

- مدير الملهى يجعلهن يقطعن المسافة من الفندق الذى ينزلن به إلى الملهى، وتزيد على كيلومتر، فى طابور، لكى يراهن الرجال ويذهبوا إلى الملهى.

- كم عددهن؟

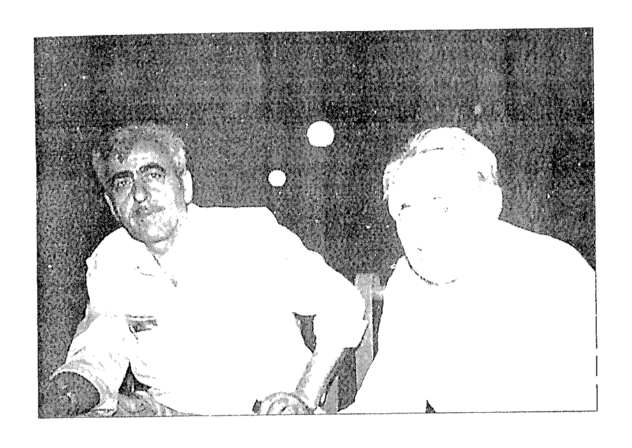
- ١٤ امرأة، وكل منهن أجمل من الأخرى، وأكثر عريا.

- إذن هيا بنا.

***

وأجمل وأرقى ما تقع عليه عيناك فى اسطنبول هو مساجدها القديمة الشهيرة... فن رفيع وعمارة رائعة... جلال وبهاء.

سبحان الله.. يجمع بغير أن يوفق إذا شاء.



اثنان من أغنياء العالم، ولكن الأمم المتحدة تتسول من أجلهما، ومن أجل أبنائهما، ومن أجل من في وضعهما...
لاجئان عراقيان فى تركيا...

الفصل الرابع

فى أمريكا

- هذه مدينة ليست ككل المدن،
هذه المدينة يعشش فيها الشذوذ والأيدز.
هكذا قال.
- نعوذ بالله من الشيطان الرجيم.
هكذا قلنا، واستغرقنا فى الضحك!

آه يا ظـــهرى

الجليد يتساقط بغزارة، والدنيا غائمة خارج النافذة، والطائرة تلف وتدور، وتلف وتدور، كمن فقد شيئا يبحث عنه بإصرار.

وساورنى الشك فى أن شيئا غير عادى يحدث فى الخارج، وانتابنى القلق.

فقد مضى أكثر من ربع ساعة منذ أذاع قائد الطائرة النبأ الذى نحن فى شوق إليه:

- أيها السيدات والسادة أحييكم، ويسرنى أن أبلغكم بأن الطائرة تستعد للهبوط فى مطار جون كيندى.

وقد جرت عادتى مع الطائرات، وأظن أنها العادة مع كل مسافر بالجو، أن تهبط الطائرة بعد خمس دقائق، أو عشر دقائق على الأكثر بعد هذا الإعلان.

والعادة أيضا أن الركاب يشعرون وقتها بأن الطائرة تتجه إلى أسفل، لا إلى أعلى، ولا إلى يمين أو يسار.

وفى الطائرة أنت تسلم أمرك ـ دائما ـ إلى الله، وتتلو بعض الآيات من كتابك المقدس، وتعطى الطيار كل ثقتك، برغم أنك لا تعرفه، ولم تكلمه، وبرغم أنك ستنساه بعد أن يتفرق بكما هذا السبيل، أى

رحلتك على الطّائرة التى يقودها.

والعادة أيضا أن تنتابك الهواجس كلما شعرت بأن هناك شيئا كالذى شعرت به وأنا فى هذه الطائرة فوق نيويورك فى شتاء عام ١٩٨٦ /١٩٨٧.

وقد تنزعج حينئذ من الحقيقة التى تنساها معظم الوقت، وهى أن الطائرات معرضة للسقوط والاحتراق، وأن ركابها معرضون للموت إذا سقطت.

وقد تتذكر زوجتك إذا لم تكن بجوارك، وأولادك إذا لم يكونوا معك، وأحباءك فى كل مكان.

وإذا استبد بك الخوف فسوف تعمل على طمأنة نفسك بأن حوادث الطائرات أقل بكثير من حوادث السيارات، فأنت تسمع عن طائرة سقطت كل شهر، أو شهرين، أو ستة أشهر، أو سنة، ولكن بإمكانك أن تحصى يوميا المئات من حوادث السيارات فى العالم، وضحاياها مئات أيضا.

وبينما أطمئن نفسى جاء صوت قائد الطائرة أكثر طمأنة:

- أيها السيدات والسادة، الآن نبدأ الهبوط، وقد اضطررنا إلى التحليق فوق المدينة نصف ساعة تقريبا بسبب تراكم الجليد على ممر الهبوط، وكان العمل قائما على قدم وساق لتنظيفه.

ثم قال، وقد رنت نغمة الارتياح فى لهجته:

- نتمنى أن نراكم معنا على رحلة أخرى... طاب يومكم.

قلت بصوت مسموع تقريبا:

- الحمد لله...

وكنت قد انتهيت توا من قراءة الفاتحة للمرة الخامسة، ورحت أجول ببصرى فى الطائرة بحثا عن عبدالعظيم حماد وسهير شعراوى، رفيقى رحلتى.

وكنا مازلنا على سفر، فسنترك هذه الطائرة ونستقل طائرة أخرى إلى واشنطن. وكانت رحلتنا ـ التى بدأت من القاهرة طبعا ـ قد أخذتنا إلى فرانكفورت بألمانيا (الغربية وقتها) ثم إلى نيويورك ٨ ساعات فوق المحيط الأطلنطى. ولك أن تتصور كم كنت مرهَقا، خاصة أنى تعبت فى مطار القاهرة لما حملت حقيبة سهير الكبيرة حوالى عشرين مترا، وقد حمل عبدالعظيم حقيبته وحقيبتى فى يديه الاثنتين، وسار بهما، أو بينهما.

وصلنا إلى واشنطن فى أول النهار، والمطار القومى (National Airport) قريب من وسط المدينة حيث الفندق، وكان أمامنا متسع من الوقت للراحة واللقاء فى المساء.

نسيت أن أقدم لك رجلين مهمين: جاسم ومعين.

جاسم تنطق الحرف الأول من اسمه مثلما تنطق حرف الجيم فى كلمة «الجنة» وأنت تقرأ القرآن الكريم، أو مثلما تنطق حرف الجيم فى «بيجاما» لو كنت «خواجا» أو لو كنت اعتدت على التشبه بالخواجا وأنت تتعامل مع هذا الحرف، كعادة أهل القاهرة أجمعين.

أما معين فلن تتعب فى نطق اسمه إذا قلت لك إنه كان فى الرحلة خير معين.

وجاسم ومعين هما مرافقانا وحاميانا وحارسانا، ومترجمانا إذا غُم علينا من الانجليزية شيء بسبب لهجة، أو لكنة، أو سهو، أو غفوة، منا ومنهم، أى منا ومن الأمريكيين.

وجاسم ومعين كانا وقتها - وأظنهما مازالا - شابين يافعين، وهما عراقيان مهاجران.

كان معين حاصلا على الجنسية الأمريكية، وكان جاسم حاملا ما يسمونه «البطاقة الخضراء» (Green Card) وهى وثيقة تسبق منح الجنسية، أو تؤهل للحصول عليها.

دخلنا الفندق، وأرخينا حقائبنا، وتهيأنا للوقوف أمام الموظفات والموظفين لملء بيانات الإقامة، ووجدت جاسم ومعين يقتربان منى ومن عبدالعظيم، ويقولان لنا بلسان واحد:

- أمامكما شهر تحلان فيه بالفنادق وترحلان، وبإمكانكما أن تستأجرا غرفة مزدوجة بسعر يزيد قليلا على نصف سعر الغرفة المفردة، ما رأيكما؟!!

- طبعا موافقان...

فسندخر - بهذه الموافقة - دولارات كثيرة، وسيعود كل منا بهدايا قيمة لأسرته.

وقالت سهير:

- ما رأيكم أن نلتقى جميعا فى غرفتى على شاى بعد الراحة احتفالا بوصولنا بالسلامة.

قلنا بلا تردد:

- موافقون.

وحوالى السابعة مساء التقينا. وبعد أن جاء عامل الفندق بالشاى فاجأتنا سهير بالكعك المصرى اللذيذ تخرجه من حقيبتها العامرة بأطايب الطعام المصرى والشراب!!

وهنا تهللت أساريرى، ولكننى صرخت فى سرى بأعلى صوت:

- آه يا ظهرى..... الذى انقصم فى مطار القاهرة!

فكم كانت ثقيلة هذه الحقيبة إلى درجة أننى حملتها على كتفى.



الفرسان الخمسة: معين وسهير وعبدالعظيم ومحمد وجاسم فى مدينة سكوتسديل بولاية أريزونا فى فبراير عام ١٩٨٧... الجو جميل فى الجنوب بعد جليد واشنطن وديترويت



الرفاق فى متحف الطيران والفضاء بواشنطن... أول مرة نرى صواريخ الدفع والكبسولات الفضائية وسفن الفضاء وملابس الرواد والطائرات القديمة... إنه متحف مثير حقا



هذه السيدة الأمريكية طردتنا من بيتها فى عز الليل لأنها تمنع التدخين فيه... وقفنا وسط الجليد المتراكم... تجمدت أطرافنا ولم نستطعم السجائر، وزوجها الذى يبدو ــ فى الصورة ــ سعيدا بها يدخن ٣ سجائر فقط.. فى "الشغل" أيام أن كان مسموحا بالتدخين فى أماكن العمل

يا سيدى القاضى

صباح الخير يا أمريكا!

أول مرة أزور تلك الولايات المتحدة، وكم أنا مشتاق وعندى لهفة...

أريد أن أرى كل شىء وأى شىء.

أريد أن أكلم الناس فى كل مكان، وفى كل موضوع.

أريد أن أشاهد كل فيلم سينمائى، وكل قناة تليفزيون، وأن أقرأ كل صحيفة، وأن أزور كل متحف.

الدنيا هنا غير محددة بحدود، وغير مقيدة بقيود.

من كل شىء تستطيع أن تستزيد، وأن تبدأ وتعيد.

استيقظت فى السابعة صباحا، وكان القسطان من الراحة اللذان حصلت عليهما بعد الوصول، وبعد منتصف الليل، قد جعلانى أغالب تأثير فرق التوقيت (٦ ساعات) على جسمى.

وكعادتى كل صباح، فى الصيف أو فى الشتاء، أخذت حماما دافئا، وارتديت ملابسى، وفتحت باب الغرفة لأجد أمامها صحيفة

الصباح.

فى قاعة الطعام بالطابق الأرضى تناولت الإفطار، وفى الردهة شربت الشاى، وكنت أطالع الأنباء فى أكثر من صحيفة، بعد أن التقطت من على مائدة بالردهة نسخا من باقى الصحف .

وبينما أطالع الأنباء والآراء كنت اختلس نظرات إلى الشارع الذى كان المطر ينهمر عليه.

يبدو أن الجليد فى نيويورك أمطار فى واشنطن.

ولما اقترب الموعد المحدد لبدء يومنا توافد أفراد المجموعة، جاسم، فمعين، فعبدالعظيم، فسهير، وكل منهم يلقى تحية الصباح، ويسأل عن الليلة كيف قضاها الآخرون.

اتفقنا جميعا على عبارة واحدة:

- الحمد لله، كل شىء على ما يرام.

ثم قال جاسم مبتسما:

- أيها الأصدقاء، حظنا حسن، فأول موعد لنا اليوم سيكون فى مكان قريب من هنا، هو ـ قالها بالانجليزية ـ The National Press Building ـ (المبنى القومى للصحافة) وبه هيئة الإعلام الأمريكية التى رتبت رحلتكم.

ومضى قائلا:

- بإمكاننا أن نقطع المسافة سيرا على الأقدام، والحمد لله أراكم مسلحين بالمظلات (الشمسيات) والمعاطف.

- هيا بنا.

وخرجنا فى بشر وحبور، وكأن الدنيا ليست شتاء، بل كأنها ربيع، وأخذنا نتجاذب أطراف الحديث حتى وصلنا. ولما دخلنا أغلقنا المظلات وطوحنا بها فى الهواء ليتساقط ما علق بها من ماء، وتحررنا من المعاطف.

- ها نحن قد وصلنا قبل الميعاد.

قال هذه العبارة معين، وكأنه يريد أن ينبهنا منذ اللحظة الأولى إلى ضرورة أن نحضر - جميعا - جميع اللقاءات فى مواعيدها المحددة.

وقبل أن ننتبه جيدا إلى معانى عبارته، وقد قالها بحياء شديد، أضاف جاسم، وعلى وجهه ابتسامة:

- فعلا، الوفاء بالمواعيد وحضور اللقاءات مهم جدا، فهذه اللقاءات جرى ترتيبها منذ شهور، وقد استغرق ترتيبها فعلا وقتا طويلا، وتطلب جهدا كبيرا. والمسئولون الذين ستلتقون بهم يتطلعون إلى لقائكم، خاصة أننا سلمناهم معلومات وافية عن الوسائل الإعلامية التى تمثلونها، وعن اهتماماتكم، وقراءاتكم، وكتاباتكم، ومؤلفاتكم، وبرامجكم.

كنت أمثل دار «أخبار اليوم» وعبدالعظيم يمثل مؤسسة «الأهرام» وسهير تمثل «الإذاعة» المصرية. وقلنا بلسان واحد، إلزاما لأنفسنا، وطمأنة لمرافقينا:

- طبعا، طبعا، هل قطعنا كل هذه المسافة من بلادنا إلى هذه

البلاد البعيدة لكى نلهو أو نلعب؟!!

صعدنا إلى الطابق الذى به المكان، وتولى جاسم ومعين تقديمنا إلى الموجودين، ودارا بنا فى المكان وهما يتحدثان عن أقسامه، وخدماته للصحفيين والمراسلين الأجانب المعتمدين فى واشنطن.

ثم وقفنا أمام دوارق زجاجية بها ماء يغلى، وصب كل منا لنفسه ماء فى كوب من الورق المقوى، ووضع به شايا أو قهوة أو لبنا، وجلسنا نشرب.

ولما دقت الساعة التاسعة بدأت ألاحظ أن معين وجاسم يتبادلان نظرات تنم عن قلق، ولكنهما يشاركاننا الحديث.

وبعد خمس دقائق دار هذا الحوار بين عبدالعظيم ومعين:

- يا عبدالعظيم، أظن أنك تريد أن تتحدث إلى الأستاذ حمدى فؤاد (يرحمه الله).

- أمامنا وقت طويل، ولا يكفى أن أتحدث إليه بالهاتف، لابد أن نجلس معه.

- إنه هنا فى هذا المبنى، ألا تعرف أن مكتب «الأهرام» فى واشنطن هنا فى هذا المبنى؟

- الحقيقة لم أكن أعرف.

- إذن بإمكانك أن تصعد إليه لتسلم عليه ثم تتفقان على اللقاء.

- أحدثه بالتليفون ليعرف أننا وصلنا، ثم نتفق.

وقام عبدالعظيم إلى الهاتف، وأدار القرص بالرقم الذى قدمته له

موظفة في المكان، وتحدث إلى الأستاذ حمدى، الذى كان وقتها - وإلى وفاته - مديرا لمكتب «الأهرام» فى واشنطن. ثم أبلغنى بأنه يريد أن يتحدث إلىّ، وأخذت منه السماعة، وتبادلت مع الأستاذ حمدى حديثا قصيرا.

ولاحظت بعد أن جلست أن نظرات القلق زادت فى عيون مرافقينا، وأنهما يتصنعان الكلام بغرض تمضية الوقت.

ونظرت فى الساعة فكانت التاسعة والثلث.

وجاءت سيدة شابة طويلة نسبيا نحيلة قليلا، وشعرها منسدل على كتفيها، وأخذت تصافحنا واحدا واحدا وهى تقول، دون توقف:

- I'm very sorry, I'm very sorry, I'm very sorry, very sorry, very sorry, very sorry.

- إنى آسفة، إنى آسفة، إنى آسفة، آسفة، آسفة، آسفة.

وأخذتنا المفاجأة، ولسان حال ثلاثتنا يقول:

- ماذا جرى؟!

وقبل أن نتنبه قالت، بصوت كسير:

- كما لاحظتم، واشنطن غارقة فى مياه الأمطار، هذه الأمطار عطلتنى، أنا أسكن فى الضواحى، وأقطع ٤٠ كيلومترا بالسيارة إلى هنا، وقد فاجأتنى الأمطار، ولم يكن ممكنا أن أتجاوز السرعة.

- Forgive me, forgive me, forgive me.

- سامحونى، سامحونى، سامحونى.

وحينئذ أدركنا أن السيدة هى المسئولة عن ترتيب برنامج رحلتنا، وأن هذا الأسف كله سببه أنها تأخرت عن الموعد عشرين دقيقة، وأنها لذلك تطلب العفو والسماح يا سيدى القاضى.



عــبـد الـعـظـيـم ومــحـمــد فـى أول رحـلـة أمـريـكـيــة...
هـذه المودة الـشـــرقـيـة عـيـب فـى الـدول الـغـــربـيــة...
ولـكـنـنـا لـم نـكـن نـعـرف



الجليد أمامى ومجمع مبانى الكونجرس الأمريكى ورائى فى رحلة الشتاء الأولى

صعيدى فى فيلادلفيا!

يوم الجمعة قبل الظهر ستكون حقائبنا محزومة وموضوعة فى خزانة الأمتعة بالفندق، فسوف نغادر واشنطن بالقطار قبل الغروب. لقد انتهى الأسبوع المخصص لعاصمة أمريكا من رحلتنا.

قل لى إلى أين المسير؟

قال جاسم:

– إلى فيلادلفيا، عاصمة أمريكا سابقا، مدينة لطيفة جدا، وستعجبكم كثيرا، خاصة فى عطلة نهاية الأسبوع.

ومضى قائلا، كخطيب فى حشد:

– سننزل أيها السادة هناك بفندق فخم، به ديسكوتيك، وبإمكانكم ارتياد هذا الديسكوتيك. هل دخلتم ديسكو من قبل؟!

***

كانت زيارتى الأولى للولايات المتحدة هى الثانية لدولة فى الغرب. وكانت الأولى ـ وهى حبى الأول ـ لألمانيا (الغربية).

فى ألمانيا دخلت الديسكو أول مرة، ووقفت فيه مبهورا بجمال، ودلال، وحركات البنات والأولاد فى سن المراهقة، أو يزيدون قليلا.

كانوا يرقصون، ويتمايلون، ويتهامسون، ويضم كل منهم الآخر ضم الحبيب للحبيب. وللوهلة الأولى انشرح قلبى بما يفعلون، وتركزت عيناى على خدودهم وخدودهن المتوردة، وشعورهم وشعورهن المسترسلة.

الحركات والسكنات أخذت لبى مع الموسيقى التى تصدح مرة، وتخبو إلى حد السكون مرة، ويتراقص ويتمايل على أنغامها الجميع ثالثة.

وصرت بعد قليل أقول فى نفسى، أو أقول لها: يا لها من حرية ليس كمثلها! كيف أطلقوا الحبل للبنات على الغارب؟! كيف يسمحون لهن بكل هذه المتعة فى سن مبكرة... بدون اقتران أو زواج؟! كيف يتاح لأولاد فى الثامنة عشرة، أو فى العشرين، أو الثانية والعشرين، أن تكون لهم خليلات جميلات رقيقات يانعات هن هؤلاء البنات... أيضا بدون اقتران أو زواج؟!

وحين بدأت أشعر بالغيظ مما يجرى حولى وأمامى صرت أقول: ربما تنتظرهم أيام ليس كمثلها أيام فى شدتها وقسوتها! وأتساءل: أليس فى هذه البلاد، أو حولها، أو بالقرب منها أسلحة نووية؟! ربما يكونون فى طريق الدمار! وربما أنهم يرقصون رقصته!!

ولما انتهى وقت الديسكو، وكان ذلك فى مدينة هامبورج، انصرفت مع المنصرفين. وإذ ألاحظ ما يجرى وقت الخروج وقعت عيناى على فتى أسمر نحيل بيده صبية بيضاء متفتحة كوردة، وأخذت أرقب

المنظر، ونسيت تماما حكاية القنابل النووية....!!

وجاء ولدان اعترضا طريق الفتى الأسمر وفتاته، ودار حوار قصير حاد اللهجة لم أتبينه، لأنه كان بالألمانية، وبعده افترق الولد والبنت! ومضى مفرقا الأحباب في حال سبيلهما. وقد تضايقت كثيرا، وتصورت أن هذين الولدين اللذين اعترضا العاشقين الصغيرين هما هادم اللذات، قابض الأرواح، سيدنا عزرائيل!

كنت وقتذاك شابا يافعا لم يصبه الزواج بعد! وبأفكار تلك السن، وفي تلك الحالة، عشت تجربة الديسكو الأولى، وبهذه التجربة المختزنة - وكنت قد تزوجت حمدا لله وشكرا - دخلت الديسكو في فيلادلفيا.

..... كنت قد تزوجت، ولكنني كنت لاأزال صعيديا:

***

فخامة وضخامة الفندق الذى نزلنا به فى فيلادلفيا جعلتني أدور فيه شمالا وجنوبا، وشرقا وغربا، وفوقا وتحتا (إن صح التعبيران) كزائر مكان تحف به الهيبة. فمن قبل، لم أر فندقا بهذا الوصف، القاعات فسيحة جدا، والمصاعد ضخمة وأنيقة، والطوابق الأولى تربط بينها سلالم كهربائية، وبالفندق نافورات، وواجهات ضخمة زجاجية، ومحال كبيرة تجارية، ومقاه، وأسواق، وبارات، وحمامات سباحة، وقاعات الديسكو.

وبعد العاشرة والنصف مساء جاء وقت الترفيه.. سندخل هذا الذى

يسمونه مرقصا «ديسكو».

***

ياله من زحام كيوم الحشر، مئات الأولاد والبنات، والرجال والشابات، يملأون المكان الذى غص بهم عن آخره وسط صخب الموسيقى، والرقص والغناء، والشراب والشواء، والدفء الذى حول المكان إلى صيف فى عز الشتاء.

ولايعبأ الداخلون بالزحام، بل يتدافعون فى طوابير متلاحمة من الأولاد والبنات، والرجال والنساء، ويتكدسون على المقاعد وفى الطرقات، كأن للزحام روحا خاصة به، ومعنى مميزا فى هذا المكان!

وفجأة دوى - فى أذنىّ - صوت انفجار...

كانت تقف قريبا منى فتاة جميلة تتبادل فى فرح الحديث والهمس مع شبان وفتيات. وفجأة أقبل أربعة شبان، ولما رأتهم الفتاة صرخت فى بشر وحبور، وفرح وسرور، وصرخ الشبان الأربعة أيضا، وألقت البنت بنفسها فى أحضانهم، وألقوا بأنفسهم عليها من أمام، ومن وراء، ومن شمال، ومن جنوب، ومن غرب ومن شرق، ومن تحت ومن فوق، وانهالوا عليها تقبيلا، على رأسها، وخديها، وشفتيها، وعينيها، وكل مكان...

- اللهم احفظنا.. اللهم احفظنا.. اللهم احفظنا...

ووجدت نفسى، بعد ترديد هذه الكلمات، أصرخ:

- يا معين... أريد أن أترك هذا المكان.

- يا محمد لا شأن لك بغيرك.

- يا معين سوف أمشى!!

- يا محمد السهرة لم تبدأ.

تحاملت على نفسى، وحاولت أن أكون فى حالى، وأن أكتفى - إن نظرت - بالتأمل دون كثير انفعال، وحاولت أيضا ألا أدقق النظر فى أحد، أو فى شىء!

ورقص الراقصون، وغنى - مع الموسقى - المغنون، وتفرج المتفرجون من أمثالنا. ولما حان وقت الخروج أسرعت مهرولا تاركا المكان، ووقفت بباب الخروج فى انتظار الصحاب.

***

وإذ أقف فى حالى، ولا شىء ببالى، خرجت فتاة وجهها شديد الاحمرار من كثرة الشراب، وكانت تترنح ويسندها شاب، هو - فى الأغلب - خطيبها. ولما وقعت عيناها المحمرتان على شخصى اندفعت نحوى، وطوقت رقبتى بيديها بقوة، وهى تصيح:

- Oh, pyramids. Oh, pyramids. Oh, pyramids.

- يا للأهرامات، يا للأهرامات، يا للأهرامات!

وأخذ خطيبها الذى انزعج يحاول فك يديها من حول رقبة هذا الفرعونى - الذى هو أنا - دون جدوى، إلى أن جاء جاسم ومعين، ولما

شاهدانى «على دى الحال» انفجرا فى الضحك، وانفجر معهما فى الضحك عبدالعظيم. والحمد لله أن خطيب الفتاة استطاع إقناعها بأن تتركنى.

وباتت قصتى مع الأمريكية الثملة أمام الديسكو حكاية كل يوم بضعة أيام.

هنا يعشش
الشذوذ والأيدز

مذيعنا الداخلى جاسم جاهز دائما ، فهو يعطينا قبل التحرك ـ بوقت كاف ـ فكرة عن البلد الذى نحن فى طريقنا إليه.

– أيها السادة غدا الرحيل إلى سان فرانسيسكو، هل أنتم مستعدون؟

هكذا قال.

– مستعدون.

– هكذا أجبنا .

– هذه مدينة ليست ككل المدن، هذه المدينة يعشش فيها الشذوذ والأيدز.

هكذا قال.

– أعوذ بالله من الشيطان الرجيم.

هكذا قلنا ، واستغرقنا فى الضحك!

***

وصلنا إلى سان فرانسيسكو فوجدناها مدينة عجيبة، ووجدناها

أيضا مدينة جميلة.

أين مواطن العجب والجمال؟

المدينة ريحها طيب، ومبانيها منسقة، وألوان المبانى مريحة، وتحُفّ بها الأشجار من كل جانب. شوارعها صاعدة هابطة، برغم استقامتها المدهشة. والحوانيت مَريحة، صغيرها وكبيرها.

هذه المدينة يحلو العيش فيها.

هكذا مرت برأسي الخواطر، ولكن كيف للمرء أن يعيش وسط الشذوذ المؤدى إلى التهلكة: دينيا، ونفسيا، وبدنيا، وصحيا، واجتماعيا؟

لما دخلنا الفندق وجدنا موظف الاستقبال يلبس فى أذنه قرطا (حلق).

وبينما تقدم عبدالعظيم وسهير لتسجيل البيانات، ملت إلى جاسم وسألته باهتمام:

- هل هذا الرجل شاذ؟

- «عليك نور»!

- لكن - يا سبحان الله - وجهه مريح!

- أتحسبه أنثى؟ أم ماذا؟!

- لم أقصد شيئا سيئا. فأنا أرى جسمه كأجسام الرجال، طولا وعرضا.

قال جاسم من واقع سابق معرفة:

- إنه ربما يبدو مريح الوجه لأنه مهتم بهيئته، فأنت تراه حليق الذقن إلى أقصى حد، وترى المساحيق على وجنتيه برغم أنها خفيفة، وترى سوالفه وقد طالت، وشعره وقد استرسل.

- ولكن شعر زميله مربوط فى نهاية الرأس.

- كل شيخ له طريقة، ألا تقولون هذا فى مصر؟

- يا أخى ما هذا التشبيه؟

- عفوا، لم أقصد.

وتقدمت لكى أملأ الاستمارة وأقدمها له. ووالله ما استطعت أن أرفع عينىّ فيه مباشرة.

***

ظهر الشذوذ فى سان فرانسيسكو علنا فى أعقاب ثورة الجنس التى اجتاحت أمريكا فى أوائل العقد الستينى من القرن العشرين، وكانت قد استمرت سنوات، وكان الشواذ يلقون فى بداية أمرهم أسوأ معاملة، فقد كان الرجال والشبان كلما رأوا واحدا منهم، أو جماعة، يوسعونه، أو يوسعونهم، ضربا أو قذفا بالطوب والحجارة، أو بصقا على الوجوه.

وكان الناس يستعملون العنف معهم لأنهم كانوا يقفون على نواصى الطرقات وقد حضن كل منهم آخر، أو أخذ يقبله، أو يأتى معه حركات أخرى لا تليق. وكان الناس ينفرون منهم لمجرد رؤية طلاء

الشفاه فى وجوههم، وطلاء الأظافر فى أيديهم. وكان أغلب الشواذ يتحملون قسوة النظرات، كما كانوا يتحملون العنف، أو يهربون منه دون مقاومة كبيرة، وكانوا يقولون إنهم أصحاب حق فيما يفعلون، وإنهم بفعلهم لا يؤذون أحدا، ولا يعتدون على أحد.

وحين كان البعض يجادلهم بأن الدين ضد فعلهم كانوا يردون بأن الأمريكيين نسوا الدين تماما، وأن ثورة الجنس أكبر دليل. ففى غضون «الثورة الجنسية» شهدت أمريكا أسوأ ما يمكن أن يشهده مجتمع، فقد كان كثير من الناس يهيمون على وجوههم فى الحدائق كالبهائم يعاشرون بعضهم بعضا.

الرجل يعاشر واحدة، ومعها ثانية، وربما ثالثة. وكانت الواحدة تخالط أكثر من رجل فى الوقت نفسه.

كان الجنس ـ والعياذ بالله ـ كلأ مشاعا، كالماء والنار. بل الحقيقة أنه كان نارا تشوى النفوس، دون أن تدرى أو تحس، فقد قضى تماما على الحياء!

وماتت ثورة الجنس، وبقى الشذوذ فى أمريكا، وصار للشواذ حقوق لأنهم بالملايين، فأصواتهم الانتخابية مؤثرة.

وقد صار لشواذ سان فرانسيسكو شىء من الاحترام، لأنهم أثبتوا ـ بمرور الوقت ـ أنهم أبعد ما يكونون عن إيذاء الآخرين، وأنهم يمتازون بالشهامة، وصدق الوعد، بل يهبّون لنجدة الآخرين فى ساعة العسرة.

ولم يعد عجيبا ـ بعد حين ـ أن يقيم إنسان سوى أواصر صداقة مع

مع شاذ، أو أن تصبح امرأة فاضلة صديقة لامرأة شاذة، بل قامت علاقات اجتماعية عادية بين الشواذ والأسوياء من الجنسين. وصارت المؤسسات والمصالح تقبل تشغيل الشواذ، مثل هذا الفندق الذى نزلنا به فى هذه المدينة الموبوءة بالشواذ.

وعاش الشذوذ، ولكن مات مقترفوه بالأيدز، وكان العقاب الإلهى عاجلا... فى الحياة الدنيا.

هو السبب

دخلت حمام غرفتى بالفندق فإذا غطاء قاعدة الحمام مربوط بشريط أبيض عريض من الورق عليه كتابة باللون الأزرق. ملت صوب الغطاء ونزعت الشريط الورقى، وأخذت أقرأ ما عليه:

«لوقايتك من الأمراض الخطيرة تم تعقيم هذا المرحاض. برجاء التأكد من أنك أول من يستعمله بعد تعقيمه. إذا كان الربط محكما فستكون أنت أول مستعمليه».

والشذوذ والأيدز هما السبب.



فى سان فرانسيسكو لقطة من بعيد وكأننى أخاف أن أكون موجودا فى المدينة التى انتشر فيها الشذوذ والأيدز

جسر البوابة الذهبية

فى سان فرانسيسكو كنا نتنقل بسيارة أستأجرها وقادها جاسم بعض الوقت، ومعين بعضه الآخر. وخرجنا يوما للسياحة فى جزيرة خارج المدينة، يربطها بها «جسر البوابة الذهبية» [Golden Gate Bridge] الذى يحتمل أن تكون رأيته فى المسلسل الطويل «فالكون كريست» الذى عرضه التليفزيون المصرى منذ سنوات بعيدة على قناته الثانية.

وصلنا إلى الجزيرة وقمنا بجولة طويلة بالسيارة، وكذلك سيرا على الأقدام بين القصور والفيللات الأنيقة، وصعدنا فى دروبها الضيقة بالسيارة، وسيرا على الأقدام أيضا.

وفى المكان الفسيح الذى يتجمع به السائحون رأينا بعض المعالم التى يشاهدها الناس هناك. وتقدمت من أحدها، وهو محاط بسور صغير من الحديد، والمكان منسق حوله بما يدل على كبير اعتناء. فماذا كان هذا الأثر؟

جذع شجرة عمره ٢٥٠ سنة من واقع البيانات المدونة على لوحة معدنية سوداء بجواره!

قلت لجاسم الذى كان قريبا منى:

- أهذا أثر؟!

- في أمريكا يعتبر أثرا، أتحسب أنك فى مصر؟! لا أحد عندكم ينظر إلى مثل هذا الجذع، أليس كذلك؟!

***

لما حان وقت العودة ركبنا السيارة التى يسميها الأمريكيون «فان» ونسميها فى مصر «ميكروباص» ويسمونها فى بيروت «بوسطة». وحين صرنا فى نقطة ما على الجسر توقف جاسم عند بوابة تماثل بوابة تحصيل الرسوم على طريق القاهرة - الإسكندرية الصحراوى، أو طريق القاهرة - الإسماعلية الصحراوى. ومد جاسم يده بدولارين تناولهما الرجل الذى فى النافذة، وانطلقت السيارة.

- إنه لم يعطك إيصالا؟

- ليس مهما!

- أيأخذ المال لنفسه؟

- طبعا لا.

- كيف إذن تتم محاسبته؟ أم أنه رجل أمين؟

- هذه الأسئلة جيدة بالمقارنة بسؤال وجهه لى صحفى شاب مثلكم من بلد عربى آخر حين كنا فى طريق العودة، عند هذه النقطة بالتحديد.

- ماذا كان السؤال؟

- لماذا لا تنطلق بالسيارة دون أن تعطيه الدولارين، فليس هناك جنود حراسة أو مطاردة إلى جواره؟!

- بماذا أجبت على سؤاله؟

***

إجابة السؤال طويلة بعض الشيء.

قبل إقامة هذا الجسر كان أثرياء القوم فى سان فرانسيسكو يتنقلون بين المدينة والجزيرة فى قوارب تبحر فى هذا الخليج الفاصل بينهما فى مياه المحيط الهادي، واسمه خليج سان فرانسيسكو. وكانت العواصف والأعاصير التى تفاجىء المنطقة تضرب بعضا منهم وسط الماء فيغرقون، أو يصابون في انقلاب القوارب.

وفكر الناس فى إقامة جسر بين المدينة والجزيرة، واحتاروا فى أمرين:

الأول - هل يمكن إقامة جسر فى هذه المسافة الطويلة؟

الثانى - بأى تكلفة؟ وهل التكلفة محتملة؟

وجاءت الإجابة على السؤال الثانى أسهل وأسرع. فالمال يمكن تدبيره بطريقين، هما: جمع تبرعات من كل صاحب حق انتفاع بأرض الجزيرة، والحصول على قرض من البنك.

ولما طُرح المشروع فى مناقصة جاءت الإجابة على السؤال الأول: تقدم مهندس تفتق ذهنه عن بناء جسر معلق، هو هذا الجسر.

وجاء الناس من مدن وولايات كثيرة لمشاهدة الجسر الجديد بعد بنائه، وتفتقت أذهان أصحاب الجزيرة عن فكرة تحصيل رسوم (على مرور السيارات فقط) وقت العودة من الجزيرة، ووافقت بلدية سان فرانسيسكو بشرط أن يتحول الجسر إلى مرفق عام، وأن تستخدم الرسوم بعد سداد القرض فى صيانته، وتحسين الناحية السياحية فى المنطقة.

- كيف تحاسب البلدية محصل الرسوم؟

طرحنا السؤال على جاسم.

- الأهم من ذلك هو: ماذا يحدث لى أو لغيرى إذا انطلق دون سداد الرسم المعلوم؟

***

حين تقف السيارة أمام النافذة تكون فوق جهاز يشبه الميزان، مهمته تسجيل مرور سيارة، وهذه هى الطريقة التى يتم بها محاسبة المحصل. وفى أعلى البوابة هناك كاميرا تلتقط رقم كل سيارة، وهذه هى الطريقة التى يتم بها ضبط السائق الهارب من سداد الرسم.

أولا يتم إبلاغ الشرطة برقم السيارة، وتذهب الشرطة إلى المرور لتعرف سيارة من: شخص أم مؤسسة؟

إذا كانت مملوكة لمؤسسة يتم البحث عن سائقها وقت الفرار بها، وإذا كانت مؤجرة يتم البحث عن مستأجرها، وهكذا إلى أن يتحدد

شخص السائق وقت الحادث.

بعد عشرة أيام أو أسبوعين على الأكثر، يذهب شرطى إلى منزل السائق، ويطالبه كتابيا بالمثول أمام القاضى، وحين يمثل أمام القاضى يوجه إليه سؤالا: هل كنت فى يوم كذا، الساعة كذا، تقود السيارة رقم كذا، وفعلت كذا ؟

ومن الأفضل أن يقول نعم، فسوف يقولها أولا أو آخرا. وحين يقول نعم سيصدر ضده حكم بالسجن بضعة أشهر، وكذلك بحرمانه من القيادة بضع سنوات.

والأهم من ذلك أن ورقة بهذا الحكم تُنسخ وتوزع على جميع جهات التشغيل الحكومية والخاصة، لتتخذ كل منها الموقف الذى تراه إذا كان يعمل بواحدة منها، أو سيطلب العمل بها مستقبلا.

فهناك صاحب شركة يقول: لا عمل عندى للص أبدا. وهناك صاحب عمل يرى أن يعمل هذا المحكوم عليه بوابا تحت الاختبار، حتى لو كان يحمل الدكتوراه. وهناك صاحب مؤسسة يوافق على تشغيله تحت مراقبة زملائه الأسوياء فترة من الوقت... وهكذا.

قانون وسياسة

إلى هذا الحد تعتبر الجريمة الاقتصادية خطيرة. ولكن الأهم من ذلك أن سيف القانون فى أمريكا ينزل على جميع الرقاب - الكبيرة

والصغيرة على السواء - إذا استثنينا إفلات الرئيس الأمريكى كلينتون من جريمة اليمين الكاذبة فى محكمة الكونجرس فى فضيحة مونيكا جيت، أو فضيحة القرن كما يسمونها.

ولكن عزاء أمريكا أن محاكمة كلينتون كان القانون فيها مختلطة بالسياسة والجنس الذى هو أمر مباح فى أسر كثيرة من وراء ستار!

لا تساوم
لا تقــاوم

مدينة نيويورك دنيا مصغرة...

فيها من البشر الأبيض والأسود، والأصفر والأسمر، والعالِم والجاهل، والصالح والفاسق والفاجر.

فيها قمة الفن والإبداع، وفيها قاع الانحطاط والإغراق فى الرذيلة.

فيها أجمل ابتسامة على أنعم وجوه نساء رأتها عيناى، وفيها جرائم القتل فى المترو ليلا، أو فى وضح النهار، من أجل حفنة دولارات، أو لمجرد الغيظ.

فيها التحلل من القانون على أشده فى مكان، وفيها قمة الانضباط القانونى والالتزام الأخلاقى والانسجام الاجتماعى فى مكان.

فيها تجارة الألماس وتجارة المخدرات، وتجارة العطور وتجارة الرقيق... جنبا إلى جنب.

نيويورك مدينة يسرى فيها قانون الزحام، يسكنها ١١ مليون نسمة من مختلف الأصول والجنسيات والأعراق والديانات، ومن

لا دين لهم أو عقيدة.

في ساعات الصباح الأولى يبدأ جمع القمامة، ولا ينتهى عماله منه قبل انتصاف النهار، فتبقى أكياس القمامة السوداء مكدسة على لأرصفة هنا وهناك. وهى إحدى مدينتين أمريكيتين شممت فيهما رائحة نتنة، وهششت فى مطاعمهما ذبابا حاول اقتحام أطباق طعامى!

فى نيويورك يتشاجر رجال المرور مع قائدى السيارات لأنهم يتجاوزون الإشارات، وتفلت أعصاب الجميع وتفور، خاصة إذا كان الطقس: لا ربيع ولا بديع... أى شديد الحرارة والرطوبة.

نيويورك فيها الإنسان ضئيل أمام ما فيها، خاصة المبانى الشاهقة، فيها شعرت ـ فى أول زيارة ـ بأن الإنسان أقل شأنا من المادة التى بنيت منها ناطحات السحاب!

وكما تشعر باستحالة أن تُحكم قبضة خيالك على المدينة فإن من المستحيل أن تشعر وأنت فى مقر الأمم المتحدة بأن هذه المنظمة تستطيع أن تحكم قبضة ميثاقها على العالم.

فى نيويورك لا تملك إلا أن تكون قدريا، عدميا، هلاميا، ضبابيا، أو هذا هو ما شعرت به، بعض الوقت، فى هذه المدينة الغجرية!

لا غرابة إذن أن يتفشى فيها اللهو واللعب، والفسوق من مختلف الأصناف والأنواع، خاصة أنها مركز المال والأعمال فى القوة العظمى الأولى والأخيرة (وقت تأليف هذا الكتاب): الولايات المتحدة.

أنا وعبدالعظيم حماد دخلنا متجرا لشراء «جاكيت» أعجبنا فقال البائع: بـ ٦٥٠ دولارا. قلنا: لماذا؟ فاصطحبنا إلى الباب، وأشار بسبابة يمناه، وقال: فى آخر هذا الشارع إلى اليمين متجر يبيع هذا الجاكت بمائة وعشرين دولارا، وأغلق الباب وراءنا!

ولما سألت عن سبب التفاوت الهائل فى السعر بين هذا وذاك قيل إن فى نيويورك متاجر تبيع بأفحش الأسعار، لكى يتجنب ارتيادها غير الأثرياء، وفيها يصل ثمن رابطة العنق إلى ألف دولار!

وفى نيويورك، كل إنسان يجرى، بل يلهث ليحقق أكبر قدر من الربح أو الدخل ليواجه غلاء الأسعار، أو لكى لا يخرج من «مولد سيدى نيويورك» دون أن يحقق قدرا من الثراء!

حتى بائعات الهوى يلهثن فى الشارع وراء الزبائن:

- Would you like fun? Would you like fun? .

هكذا قالت لنا إحداهن ذات مساء، وكانت تقف فى الشارع شبه عارية فى جو قارس البرودة، وسؤالها - إذا ترجمته - هو:

- هل تريد متعة؟ هل تريد متعة؟

قال جاسم دون أن يلتفت إليها:

- We have aids.

- عندنا أيدز!

قالت ولهجتها جادة:

- Use a rubber!

- استعمل عازلا.

قلت لجاسم مازحا:

- إنها تعرف من تريد:

قال ضاحكا:

- أبدا، هي تريدك أنت، ولكنني كنت أحميك!

- من الذي طلب منك حمايتي؟

- القانون؟

- ما شأنه؟

- خطير.

***

في نيويورك بيع الهوى جائز، من حق البائعة أن تقف في الشارع تعرض بضاعتها! ومن حق الزبون أن يحصل على البضاعة المعروضة... ولكن بعيدا عن الشارع طبعا! وليس من حق الزبون أن يساوم!

ليس من حقه أن يسأل:

- How much would you like to have?

- كم تريدين؟

إنه إذا سأل سيتلقى منها إجابة، وإذا ساوم سيحصل على تخفيض. ولا لوم على البائعة ولا تثريب. اللوم والتثريب على

المشترى، واللوم ليس شفويا... بضعة أشهر وراء القضبان.

- وماذا يا أستاذ جاسم؟

- على الإنسان أن يحترس جدا، فالمشترى قد يتلفت يمينا ويسارا ليرى ما إذا كانت هناك شرطة أم لا، ثم يساوم، ولكن حظه العاثر يوقعه فى «ضابطة شرطة» (a policewoman) متخفية فى زى بائعة هوى، وبإشارة من يدها تنشق الأرض، وتظهر سيارة البوليس.

- وإذا ظهرت الشرطة؟

- لا تقاوم، فهناك أنواع من المقاومة عليها فى القانون عقاب.

- لا أمن هناك إذن ولا أمان؟

- هناك درجة من الأمان؟

- كيف؟

- تستطيع أن تسأل بائعة الهوى:

- Are you a police?

- هل أنتِ من الشرطة؟

فإذا كانت من الشرطة فستقول: نعم.

يا سلام!! يا سلام!!

على باب السجن

لماذا تغدق علينا بكل هذه المعلومات؟!

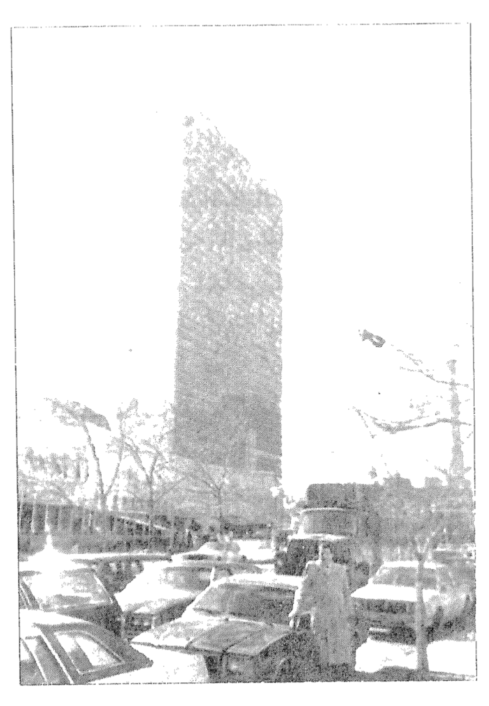
قال جاسم:

- لأن قريبا لكم، أقصد شابا من بلد عربى غير مصر، فعلها من قبل.

- هل دخل السجن؟

- قال فى قسم الشرطة إنه ضيف على الحكومة الأمريكية فلم يعيروا كلامه انتباها.

ولما اتصل بنا ليبلغنا بما حدث منه وما حدث له ركبتنا عفاريت الأرض والسماء، خوفا عليه وعلينا. واتصلنا بوزارة الخارجية، واتصلت بدورها بوزارة العدل، وبعد جدال حاد، ومشادات قانونية وفنية وسياسية استغرقت ٢٤ ساعة.... تم إطلاق سراحه، وغادر البلاد.



أنا والأمم المتحدة...

لا أنا أطول منها

ولا هى أقوى من العالم



مع أسرة مصرية فى أمريكا فى رحلة الشهر.. سعدنا بهم وسعدوا بنا.. خففنا عنهم متاعب الغربة وشموا فينا رائحة الوطن

رحلة السبعين يوما

اخترت من «رحلة الصيف» فى الولايات المتحد صورة غلاف هذا الكتاب. وأنا أصفها بـ «رحلة الصيف» لأن الرحلتين الأخريين إلى أمريكا كانتا فى عز الشتاء، بين ديسمبر ويناير وفبراير.

وقد كانت رحلتا الشتاء، فى مجملهما، بردا وسلاما على النفس. أما رحلة الصيف فكانت نارا تلفح الوجوه: فى طقسها، ومفارقاتها، وملابساتها، وأحداثها الجسام التى مرت بنا.

كانت رحلتا الشتاء جماعيتين. الأولى عرفت وقائعها فيما مر بك من صفحات هذا الكتاب، والثانية وردت وقائعها فى الجزء الأول من هذه السلسلة وعنوانه «رحلات ابن عبداللاه» وكان رفاقى فيها: سيد الملاح من جريدة «الشعب» وأحمد البرديسى من «الجمهورية» ومحمد حسن البنا من «الأخبار».

فى رحلة الشتاء الأولى سافرنا بدعوة من السفارة الأمريكية، وقعها السفير ـ وقتها ـ فرانك ويزنر.

وفى رحلة الشتاء الثانية سافرنا بدعوة من البنك الدولى، رتبها السفير عبدالله أبو حبيب مدير الإعلام بإدارة الشرق الأوسط وشمال إفريقيا بالبنك.

أقول السفير لأن عبدالله أبو حبيب كان قبل ذلك سفيرا للبنان الشقيق فى واشنطن، وقد أغلق باب السفارة وأخذ مفتاحها إلى البيت احتجاجا منه وتمردا على اغتيال الرئيس اللبنانى بشير الجميل، ورفض إعطاء المفتاح للسفير الذى عينته وأوفدته حكومة الرئيس الجديد أمين الجميل!!

ومع ذلك روى لنا أبو حبيب هذه المزحة:

لما مات بشير وصعدت روحه إلى السماء دخل الجنة، وإذ هو فى النعيم سائرا فى طريق مفروش بالورود والحرير على نهر من اللبن والعسل، رأى مكانا فخما يجلس فيه القديس مارون، وهو أبو ورمز الطائفة المارونية.

فرح بشير من قلبه، وانطلق إلى القديس مارون فاتحا ذراعيه، ولكن مارون أشاح عنه بوجهه، ولم يمد يده!

ومضى بشير كاسف البال، ولكنه بعد سير قصير وجد مكانا حافلا بمظاهر العظمة، ورأى فيه سيدنا المسيح عليه السلام، فانطلق سعيدا مهللا صوبه فاتحا ذراعيه، ولكن السيد المسيح أشاح عنه بوجهه، ولم يمد يده!

ومضى بشير كسير القلب، وقال لأول من قابله من الملائكة:

- لقد أشاح أبونا مارون بوجهه عنى، وكذلك فعل مخلصنا يسوع.

تفرسه الملَك، ثم قال له فى تؤدة:

- يا ولدى يا بشير، كيف يلقيانك هاشين باشين فى حين أن الأول

سورى والثانى فلسطينى!!

وعـــد بلـقـاء

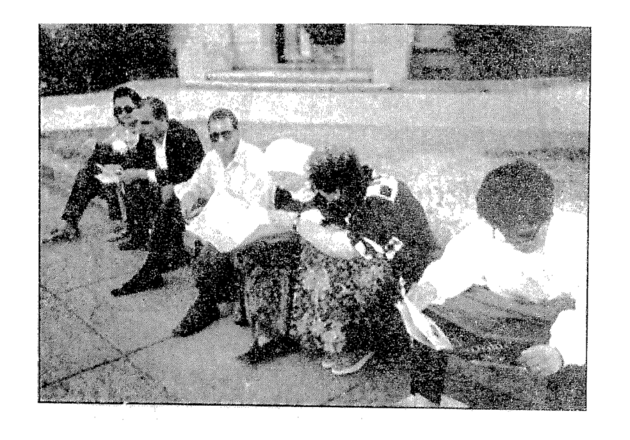
فى رحلة الصيف كان عدد الصحفيين المصريين كبيرا بلا حسد، وكان الوقت طويلا بلا ملل، وكانت الأحداث والوقائع متسارعة ساخنة بلا جدل.

هل أروى وقائع رحلة الصيف فى الكتاب الذى سيجعل هذه السلسلة «ثلاثية»؟

غالبا، إذا كان التوفيق حليفا، ومن ضرورات التوفيق طول الأجل.

أعدك بلقاء إن شاء الله

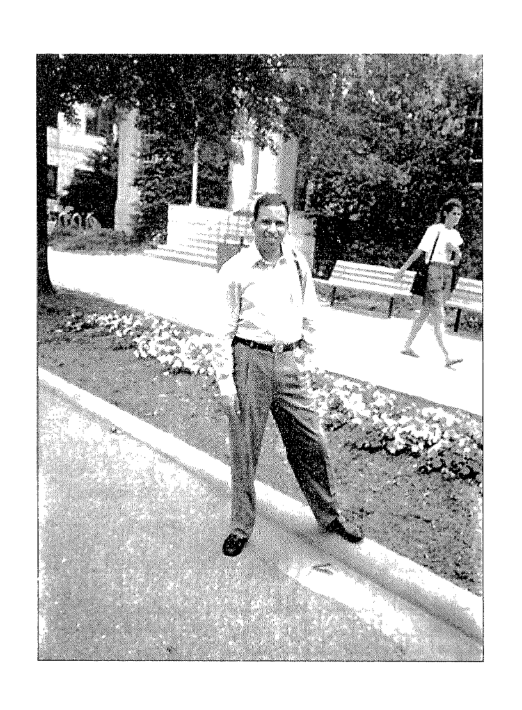
وإليك هذه المقدمة المصورة من رحلة السبعين يوما.



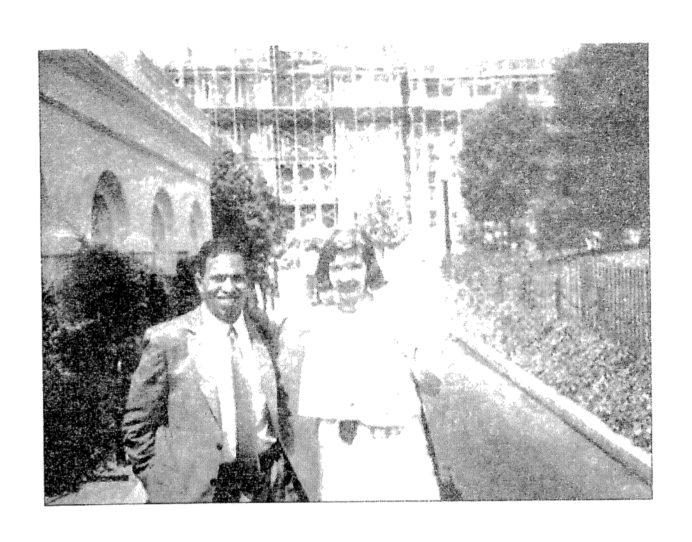
أنا وبعض رفاق رحلة السبعين يوما على الرصيف فى واشنطن... فى بداية الرحلة تهنا وكان بعضنا يبحث فى الشوارع عن البعض الآخر... تعبنا فجلسنا...



أتسلم من جميلة أمريكية شهادة فى واشنطن ــ بعد تعليم استمر ٥ أيام ــ بأننى أستطيع أن أعيش فى أمريكا معتمدا على نفسى ٦٥ يوما...



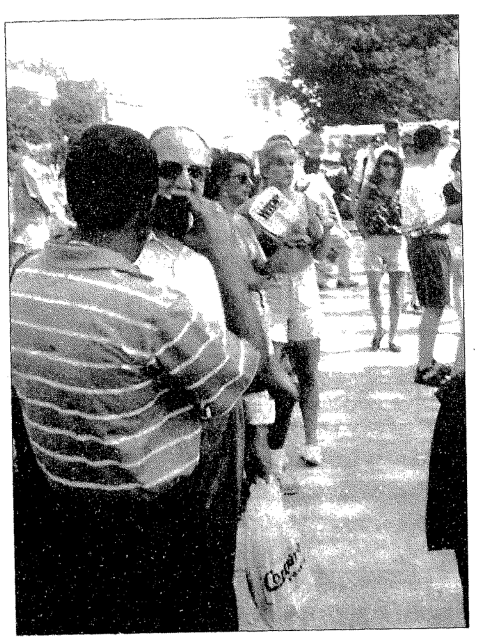
فى الجامعة الأمريكية بواشنطن... ورود ودروس ومشاكسات ومتاعب من الرفاق ومعهم، ومن إدارة الجامعة ومعها... وكذلك الحرس الجامعى...



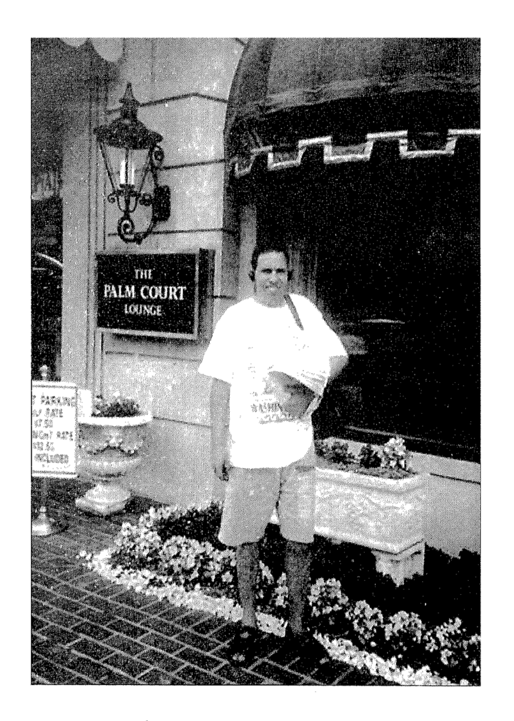
مراسلة وكـالـة أسـوشيـتدبرس فـى البيت الأبيض (كـاجوال فـى الـويك إنـد)... منهـا عـرفـت كـيف يعـمـل الـصحـفـيون مع الـرئيس، وكـيف يتعـاملـون معـه، وكـيف ينظـر إلـى مـهمـتهـم... علاقـة صـعبـة جـدا ومعـقـدة جـدا وخـطـيرة جـدا...



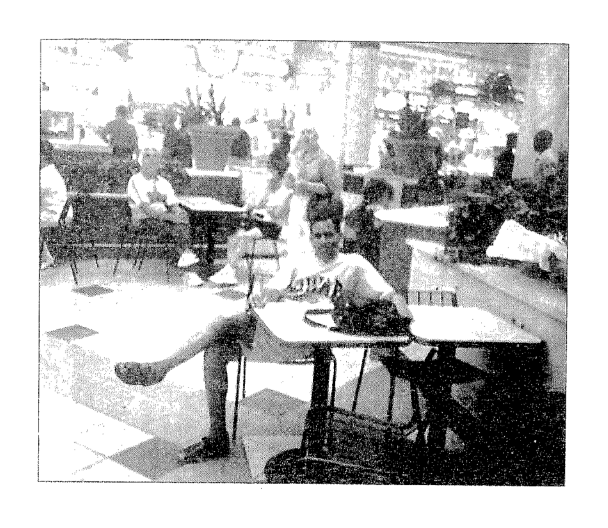
فى مسجد المركز الإسلامى بواشنطن: تصلى، وتتناول وجبة من الأرز واللحم المذبوح طبقا للشريعة الإسلامية، وتحضر إشهار إسلام اثنين من الأمريكيين أو ثلاثة... يوم الجمعة فقط



استترت بزميلى عادل ضيف ـ دكتور الآن ـ لكى أصور هؤلاء الكاسيات العاريات الأمريكيات فى قلب واشنطن قرب مبنى الكونجرس فى احتفال أمريكا بعيدها القومى... احتفال من القلب إلى درجة أن الناس خرجوا من ملابسهم!



الصحيفة فى يدى، والموسيقى فى أذنى، والحقيبة فى كتفى، والكاميرا فى يد أحد المارة يصورنى فى واشنطن... ما أحلاها حياة الرحال، وما أقساها أحيانا!



أكل وبحلقة فى الكاميرا فى مطعم بواشنطن فى رحلة الصيف



لحظة استرخاء على حمام سباحة فى فندق بواشنطن فى الرحلة الطويلة



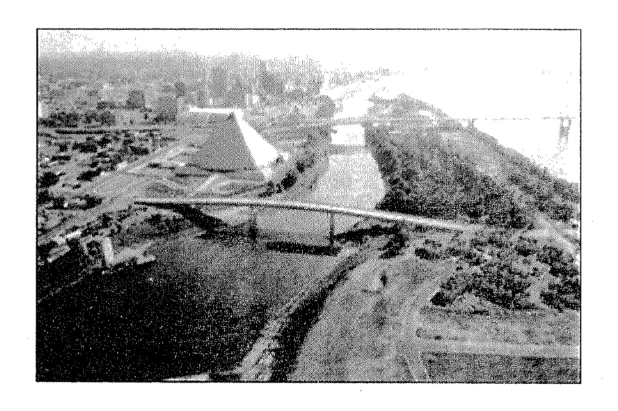
كانت الرحلة السبعينية صيفية، ولكننى عدت إلى الذكريات القديمة ووقفت أمام الفندق الذى نزلت به فى رحلة الشتاء الأولى، ولم يكن ممكنا أن أقف على هذا النحو وقتها وسط الجليد الذى غطى وقتها كل شىء



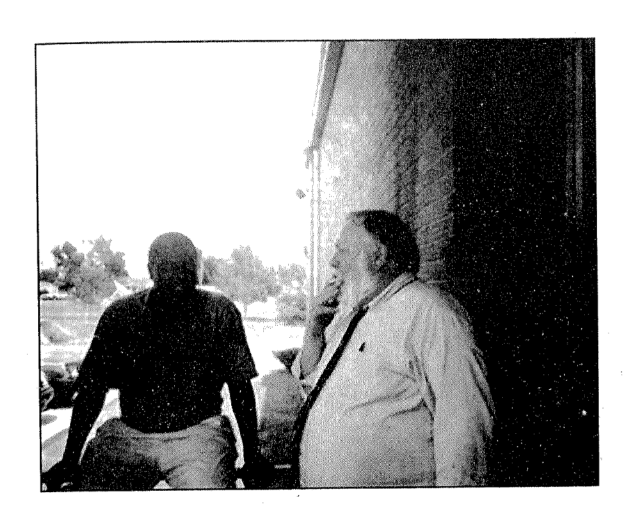
فى هذه الضاحية الراقية بواشنطن عشت أكثر من ٤٠ يوما من الرحلة السبعينية... هنا ميريلاند...



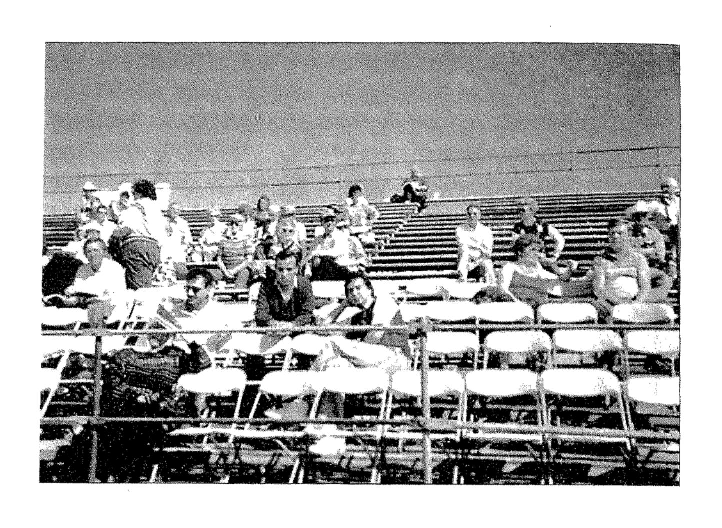
أضع نظارة سوداء حدادا ــ بأثر رجعى ــ على داعية الحقوق المدنية الأسود مارتن لوثر كنج الذى اغتيل عام ١٩٦٨ فى الشرفة التى أقف تحتها فى هذا الفندق البسيط الذى تحول إلى متحف تخليدا لذكراه...



هرم مدينة ممفيس الأمريكية ليس هرما للموت كهرم خوفو أو خفرع أو "من ــ كاو ــ رع". إنه هرم للحياة به متاجر وملاعب وملاه أما النهر الذى يمر بجواره فهو المسيسيبى

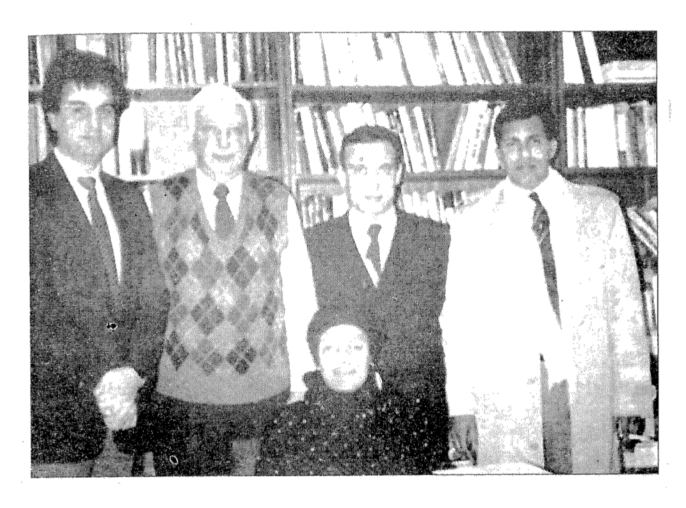


الرجل الواقف هو صاحب الصحيفة الإقليمية التى يدخن أمام مبناها تطبيقا للائحة "التدخين ممنوع" التى قرر العمل بها فى الداخل...



جاسم وعبدالعظيم ومعين وسهير فى مقاعد المتفرجين بحلبة لسباق الخيل بأريزونا فى أول رحلة، أما أنا فألتقط الصورة...

كل رحالة معاصر يجب أن يؤكد مشاهداته وانطباعاته وانفعالاته بصورة



تصادفني أحيانا مشكلة نسيان اسم شخص مثل هذا المسئول الأمريكي الذي قابلناه في رحلة الشتاء الأولى...
ضاع الاسم من الذاكرة ومن المذكرة والمفكرة...
هذا حظ غير حسن... له ولي...

الفصل الخامس

في هولندا

وأخذت أسأل عن هذا، وهذا، وهذا، وذاك، إلى أن عرفت كل شيء، ثم انصرفت.

وفي الطريق إلى قصر الملكة صرت ألقي نظرة واحدة على كل متجر فإذا المتاجر كلها متماثلة، لا اختلاف بينها، إلى أن وصلت إلى ساحة القصر، ويا ليتني ـ أيضا ـ ما وصلت!

مائدة اللئام
فى أمستردام

تغيظك الطباع الانجليزية أحيانا. والحقيقة أننى لم أتعرض للغيظ الانجليزى فى انجلترا، بل فى واشنطن وقت أن كنت فى زيارتى الثانية لأمريكا، وهى الزيارة التى أسميها رحلة السبعين يوما، أو الرحلة السبعينية... على غرار الحرب السبعينية التى وقعت زمان فى أوربا فى العقد السبعينى من القرن التاسع عشر!

فقد استغرقت تلك الرحلة سبعين يوما، وحفلت بالمفارقات، والصعوبات، والمشكلات، والمشاكسات، والمعاكسات، وكادت تصل بأحدنا إلى السجن، وهو أبغض إلى المرء من أى شىء.

قلت لنفسى قرب نهاية تلك الرحلة: سأقضى إن شاء الله بضعة أيام فى بلد أوروبى. وسألتها - أى نفسى - لماذا لا تكون بريطانيا، أريد أن أرى مدينة الضباب... لندن.

واتصلت بدليل الهاتف، وسألت عن عنوان السفارة البريطانية، وجاءنى الرد، وإلى هناك أسرعت بسيارة أجرة.

مبنى السفارة هادىء ولطيف، بل رقيق! وطلاب التأشيرات

وأصحاب المصالح نفر قليل. وفى برهة حصلت على استمارة طلب التأشيرة، وبسرعة كتبتها ووقعتها، وتوجهت إلى الشباك المخصص لأقدمها.

- صباح الخير.

- صباح الخير.

ومددت يدى بالاستمارة، ومعها جواز السفر وصورتان، وبطاقة عليها اسمى، ومهنتى «نائب مدير تحرير الأهرام» وقتذاك، وأرقام الهواتف فى القاهرة.

وبعد أن فحص الرجل الأوراق طلب الانتظار برهة، وعاد بعدها يقول بلهجة صارمة مغلفة برقة مصطنعة:

- مستر محمد، تعال بعد ١٥ يوما.

- لماذا ١٥ يوما؟!

- لأن الطلب سيذهب إلى سفارتنا فى القاهرة، وهى التى توافق على منحك التأشيرة.

قلت بلهجة حادة غير مغلفة بأى رقة:

- من فضلك اعطنى جواز سفرى وأوراقى، أنت تعرف أن الواقف أمامك صحفى بالأهرام، ونائب مدير تحريرها، ويطلب التأشيرة فى واشنطن، وأظن أن أمريكا أحسن من بريطانيا لو كان فى نيتى أن أترك بلادى، لا قدر الله.

قال، وقد بدا عليه الضيق:

- السفارة البريطانية فى القاهرة تعرف يقينا ما تقول، وليس هناك ما يمنعها من الموافقة، وأنا متأكد أنك ستحصل على التأشيرة بعد أسبوعين على الأكثر. والمسألة إجرائية تماما.

فكرت برهة، ولكن شعورا بعدم الراحة كان قد تسرب إلى نفسى، خاصة أنه لم يتحدث عن مسألة الإجراءات فى البداية، وقلت له بأعصاب أهدأ:

- أشكرك، من فضلك أعطنى أوراقى.

***

وفى اليوم التالى سألتها (نفسى): لماذا لا تكون هولندا ؟!

وأجابت: فكرة طيبة، خاصة أن تذكرة سفرنا على شركة طيرانها، وأنه من المقرر أن تتوقف طائرتها فى مطار أمستردام بضع ساعات فى طريق العودة إلى القاهرة. وبعد كتابة استمارة طلب التأشيرة، وتسليمها مع جواز السفر، قال المختص:

- مستر محمد، نريد عنوانا فى أمستردام، أو أى مكان فى هولندا.

- ماذا تقصد؟

- مكان إقامة لك بعد وصولك.

- فندق مثلا؟

- نعم.

- اعطنى فرصة.

- لا بأس، وبإمكانك أن تكلف شركة الطيران بالحجز لك.

***

قبل أن أركب الطائرة إلى أمستردام كنت فخورا بنفسى، متصالحا معها.

كنت قد أقلعت عن التدخين منذ ١٥ يوما... فى طريق اللاعودة إليه، إن شاء الله! وكان أمامى اختبار مهم: أن أعبر الأطلنطى فى طائرة بدون أن أدخن سيجارة واحدة، أو بدون أن تهفو إليها نفسى.

الحمد لله، تحقق الحلم.

ونزلت من الطائرة فى أمستردام مستريحا هادئا. ففى الليل ملت علىّ مقعدى فى الطائرة إلى الوراء، ونمت قرابة ٣ ساعات، أى نصف مدة الرحلة.

فالطائرة تقطع المسافة من أمريكا إلى أوروبا - أى تقطع طريق العودة - فى قرابة ٦ ساعات بينما تقطع طريق الذهاب فى قرابة ٨ ساعات. والسبب هو الريح، فهى فى طريق العودة تدفع الطائرة، أو أنها لا تقاوم اندفاعها، وفى طريق الذهاب تتشبث بمقاومة اندفاعها.

وكنت فى السابق لا أنام، بل أبقى قرب ذيل الطائرة، وراء جناحيها، لكى أدخن وأدخن! وكانت الضوضاء تصم أذنىّ وتحطم أعصابى!

أما هذه المرة فقد سألتنى موظفة شركة الطيران فى مطار دالاس بواشنطن:

- هل تدخن؟

قلت بفخر:

- non-smoker. لا أدخن.

***

فى المطار بأمستردام ظهرت حقيبتاى الكبيرتان على سير الحقائب النازلة من بطن الطائرة فوضعتهما على عربة المتاع، ودفعتها أمامى صوب مكتب شركة الطيران الهولندية.

- صباح الخير.

- صباح الخير.

- وجهتى النهائية القاهرة، وسأبقى فى أمستردام ثلاثة أيام، هل يمكن أن تبقى هاتان الحقيبتان طرفكم، إلى حين سفرى إلى بلادى.

- اتجه جنوبا فى المطار، فى الطريق إلى محطة المترو، وستجد قبل المحطة مخزنا كبيرا...

- بداخل المطار؟

- نعم. وادفع ما قيمته دولاران، واحصل على دولاب حديدى مثبت فى الأرض، افتحه ثم ضع الحقيبتين واقفل، وحين عودتك خذ متاعك وسلم المفتاح.

- شكرا لك يا سيدتى.

وبعد أن انتهيت من ذلك وضعت الحقيبة الصغيرة التى بقيت معى على كتفى، وسرت مسافة قصيرة صرت بعدها فى محطة المترو فى طريقى إلى الفندق فى وسط المدينة.

***

بعد دقيقة واحدة وقفتها على الرصيف فى المطار جاء المترو، وركبت. وبعد دقيقة ونصف انطلق. وما إن ترك المترو نطاق المطار حتى سحب الرجال والنساء من جيوبهم علب الدخان الصفيح المستطيلة التى كنت أراها مع والدى وأعمامى وأخوالى فى قريتى منذ ثلاثين سنة. وفتح هؤلاء الهولنديون علبهم وأمسكو بورق «البافرة» الرقيق الموجود فيها، وأخذوا يضعون فيه الدخان ويلفون السجائر.

يا للهول، ما هذا الذى يحدث؟!

هذه الصيحة انطلقت من داخلى وأنا أرى فى أمستردام فى عام ١٩٩٤ ما لم أعد أراه فى قرى الصعيد منذ عام ١٩٦٤.

لماذا هذا؟

لماذا يحدث؟

بأى منطق؟

وصرت أفتش بداخلى عن السبب. ثم تذكرت...

آه، هولندا أباحت منذ سنوات تعاطى الحشيش! والمصانع ـ طبعا ـ لا تضع الحشيش فى سجائرها، هم يضعون حشيشهم بأنفسهم!

وقبل أن أصل إلى الحقيقة كان الدخان قد انطلق من الأفواه والأنوف، وامتلأت العربة بالرائحة النفاذة. وصرت أنظر حولى متأملا ما يحدث، وباحثا فى وجوه وأفواه هؤلاء المدخنين عن آثار التدخين، فإذا بعضها أسنان صفراء أو مهشمة، وبعضها شفاه سوداء، وبعضها عيون منتفخة حمراء!

وأين؟

فى المترو؟

لقد ساعدتنى القيود على التدخين فى أمريكا على الإقلاع عنه. الحمد لله!

***

كان بالقطار من هم من غير المدخنين أيضا، منهم فتاة رقيقة رشيقة تجلس فى المقعد الذى أمامى، وقد سألتها:

– من فضلك دلينى على المحطة التى أنزل فيها لأذهب إلى هذا الفندق؟

وناولتها ورقة بها اسم الفندق وعنوانه.

قالت:

– إنها المحطة المركزية، وبعد أن تخرج من مبنى المحطة ستجد

ميدانا ، اركب من الميدان الترام رقم ٢ وقدم للسائق هذه الورقة، وسوف يطلب منك النزول في أقرب محطة إلى الفندق.

ثم وجدتها تبتسم، وتسألني:

- أنت سائح؟

- نعم.

- أنت سعيد الحظ!

- لماذا؟

- جميلات هولندا يفضلن هذه البشرة.

وأشارت إلى ذراعي المكشوف.

قلت في خجل:

- أشكرك.

فمضت تسأل:

- كم يوما ستبقى هنا؟

أجبت على سؤالها بسؤال:

- ١٥ يوما؟!

- الأفضل شهر، وعلى كل حال ١٥ يوما معقولة أيضا.

***

وانشغلت بنفسي إلى أن جاءت المحطة فحييت الفتاة مبتسما، ونزلت. ولما تجاوزت المبنى إلى الميدان شعرت بالبرد يلسعني برغم أن

الوقت أغسطس، وبرغم أن الجو كان شديد الحرارة فى واشنطن!

وركبت الترام، وقدمت الورقة إلى السائق، وكلما أسأله عن المحطة يطالبنى بالانتظار فسكت. وطال الوقت بى فى الترام، وسألته فأبدى أسفه لأن المحطة مضت. فتحدثت مع رجل يعرف الانجليزية جيدا، وقال له السائق: يرجع معى إلي الميدان ثم يعاود الكرة، فشريط المترو فى اتجاه واحد. وقال لى الرجل إن من الأفضل أن أنزل وأرجع ثلاث محطات.

نزلت من المترو وزاد شعورى بلسعة البرد، وكأن الطقس كان يعرف ما أنا فيه ويريد أن يختبرنى فانهمر المطر، وأصبحت لسعة البرد شديدة، والملابس التى فى الحقيبة صيفية، واليوم عطلة نهاية الأسبوع والمتاجر مغلقة.

وسرت تحت الشرفات، ولكن أعصابى توترت جدا، بل بصورة غير معتادة!

بعد دقائق قليلة وجدت نفسى أقف وجها لوجه أمام «كشك سجائر».

أخرجت بعض العملة التى معى وطلبت من الرجل علبة سجائر وعلبة كبريت فأعطانى ما أردت، ورد الباقى.

أخرجت من العلبة سيجارة أشعلتها وأنا أشعر بذنب عظيم، لأننى عدت إلى التدخين، ولما انتهيت من تدخين السيجارة أشعلت الثانية، ولما وصلت إلى الفندق كنت قد دخنت ٥ سجائر.

دخلت الفندق ونمت من الظهر إلى الثامنة مساء، ثم خرجت مرتديا قميصين كل منهما بكم فوق الآخر، وتناولت طعام العشاء في مطعم أنيق طعامه شهي، وعدت لأسهر قليلا بمقهى الفندق، ثم نمت ورائحة الدخان في فمي...

قصر الملكة

اليوم هو المتمم للعطلة الأسبوعية، أي يومها الثاني. وقد استيقظت في العاشرة صباحا مرهقا مجهدا من كثرة ما دخنت فيما بقي من النهار أمس، وحتى نمت بالليل. وبسرعة أخذت حمامي، وارتديت ملابسي، ونزلت إلى كافتيريا الطابق الأرضي حيث تناولت طعام الإفطار.

توجهت إلى موظفة الاستقبال أسألها:

- سأقضي اليوم هنا، وغد أسافر إلى القاهرة، أين يمكنني أن أذهب في جولة سياحية بهذه المدينة.

- تخرج من هذا الفندق مباشرة وتتجه يسارا، سر مسافة ٣٠٠ متر ستجد نفسك أمام الكاتدرائية، وستجد مهرجانات شعبية فيها الرقص، والألعاب، والغناء والموسيقى.

- عظيم.

- ولو اتجهت شمالا مرة أخرى فستجد نفسك على طريق الكورنيش، على النهر، حيث مختلف أنواع المقاهى والكافتيريات، والملاهى والمراقص. ولاحظ أن المراقص والملاهى تعمل ليلا.

- هل هناك معالم أخرى؟

- يمكنك أن تقضى جانبا من النهار قرب قصر الملكة، ويمكنك شراء الهدايا والتذكارات من متاجر هناك، اركب الترام رقم ٢ إلى محطة المترو المركزية، وحين تصل سر فى أكبر شارع، وهو متعامد على المحطة متجها إلى القصر، وسترى معالم أخرى، وستتسلى بمظاهر العطلة الأسبوعية، أقصد ما بقى منها.

- شكرا.

***

لأبدأ بقصر الملكة، ويا ليتنى ما بدأت به، ولا انتهيت إليه.

فى أول المسير بالشارع المتعامد مع المحطة المركزية وجدت متجرا، ووقفت أمام واجهة العرض فإذا بى أمام كل شىء سىء. أفلام مخلة بالآداب من كل صنف. وكتب ومجلات تشرح الفسوق والشذوذ بمختلف صنوفه فى مئات الصور، وبطاقات معايدة عليها رسوم وصور «مقرفة» لأجزاء من أعضاء الإنسان وفضلاته. أما البطاقات المحتشمة فعليها صور شفاه وأرداف للأسوياء والشواذ على السواء، وسجائر محشوة بالحشيش بعضها مشتعل، وبعضها الآخر منتفخ.

- لا حول ولا قوة إلا بالله.

قلت هذه العبارة بصوت عال، وانصرفت من أمام الواجهة إلى المتجر الذى يليه.

- لا حول ولا قوة إلا بالله.

قلت العبارة مرة أخرى، لأن البضاعة هى هى، ووقفت أمام المتجر الذى يليه فلم يختلف، والذى بعده، والحال هو الحال.

ولما صرت أمام المتجر الخامس قلت: سأدخل!

إلى يسارى وجدت درجات سلم وبابا مغلقا، وأعلى الباب لافتة عليها عبارة باللغة الانجليزية هى «Sex Capin» - كابينة جنس. قلت للبائع وكلى «قرف»:

- ما هذا؟

- مكان صغير يستطيع الزبون أن يشاهد فيه - ومعه صديقته إن أراد - فيلما نؤجره له!!

وأخذت أسأل عن هذا، وهذا، وهذا، وذاك، إلى أن عرفت كل شيء ثم انصرفت. وفى الطريق إلى قصر الملكة صرت ألقى نظرة واحدة على كل متجر فإذا المتاجر كلها متماثلة، لا اختلاف بينها، إلى أن وصلت إلى ساحة القصر، ويا ليتنى - أيضا - ما وصلت!

فبعد أن انتهيت من أسوار القصر الأمامية وساحاته سرت يمينا بجوار السور، وفى مواجهته توجد متاجر صغيرة وشوارع ضيقة. وبإمكانك أن تشترى من المتاجر الصغيرة بعض الهدايا التذكارية

المحترمة، ولكن نفسى رفضتها!

وفى أحد هذه المتاجر قلت للبائع:

- أريد علبة سجائر.

سألنى وهو يقدمها لى:

- هل تريد حشيشا؟

- لا ياسيدى.

وعلى ناصية شارع ضيق وجدت شابا يقول لى بإلحاح:

- Girl, girl. boy, boy?

- بنت، بنت. ولد، ولد؟!

وأقفلت عائدا، كما يقولون فى القصص والروايات. قطعت الشارع مهرولا إلى أن وصلت إلى محطة الترام، وعدت إلى الفندق لأجلس فى الكافتيريا، أشرب الشاى وأدخن.

وفى الليل كانت آخر جلسة لى أمام مائدة اللئام فى أمستردام. كانت فى مرقص على النهر شعرت فيه بأن الأولاد والبنات يأكلون بعضهم بعضا!

نهضت بعد وقت قصير، وعدت إلى الفندق.

نمت واستيقظت مبكرا، وأسرعت إلى المطار لأقضى به ساعات قبل أن يحين موعد سفرى عائدا إلى أرض الوطن... بعد طول اشتياق.

الفصل السادس

في باكستان

صحوت من أحلامي على صوت مرافقي يطلق هذه العبارة بصوت حاد. وقلت، وأنا أرتج:

- ماذا جرى يا سيدي؟!

- هناك انهيار أرضي على الطريق، ولا بد أن نلزم جانب الحذر، لكيلا تجرفنا الصخور إلى قاع الوادي.

الطريق إلى كشمير

فى نصف ساعة مرت ٦ أشهر!...

كان ذلك فى شهر أغسطس، وكان الجو شديد الحرارة، وكانت درجة الرطوبة عالية، بل خانقة.

كنت أتصبب عرقا وأنا فى سيارة أجرة متجها إلى مقر وزارة الخارجية فى إسلام اباد لأقابل مرافقى الباكستانى فى رحلة كشمير.

ركبنا سيارة ملاكى حديثة الطراز، متينة البناء، مكيفة الهواء. وفى السيارة أخذت أجفف عرقى حتى لا أصاب بنوبة برد. وبدأنا المسير على طريق كشمير.

بعد ربع ساعة تقريبا بدأت السيارة تشق طريقا صاعدا متعرجا.

لقد بدأنا رحلة السير على الهضاب التى تمتد على هذه الشاكلة إلى أن نصل إلى مشارف مدينة مظفر اباد عاصمة «كشمير المحررة» كما يسميها الباكستانيون، أو «أزاد كشمير» بلغتهم.

بعد فترة وجيزة صرنا فوق قمة هضبة، وقال مرافقى للسائق:

– أوقف التكييف حتى يستمتع مستر محمد ـ عفوا أستاذ محمد ـ بجو بلادنا اللطيف.

مرافقى شفيق هاشمى يتحدث العربية قليلا، ولذلك دار أغلب حوارنا بالإنجليزية.

وأغلق السائق التكييف، وفتح النوافذ...

بسم الله ما شاء الله. الهواء نقى فوق الهضبة، إنه نسيم عليل. وزادت من حلاوة النسيم، أو كانت سببا فيه، هذه الخضرة اليانعة فى هذه الغابات والمروج، وهذه الشلالات الصغيرة السارية بما تبقى من ماء المطر الذى يسقط على هذه المروج بين الحين والحين.

وزادت جمال المكان الأشجار السامقة... جذورها فى الوادى العميق، وفروعها تلامس الطريق الذى تمضى عليه سيارتنا التى كانت تكد وتكدح وقت الصعود، وتسرح وتمرح وقت الهبوط.

اجتمع اثنان رائعان: الخضرة والماء. وتمنيت لو أن الباكستانيين أطلقوا سراحى فى هذا المكان الجميل الذى لا ينقصه إلا الوجه الحسن. ولو اجتمع الثلاثة ـ هنا بالذات ـ لشعرت بأننى فى جنة نعيم!

– قف من فضلك!!! قف من فضلك!!!

وصحوت من أحلامى على صوت مرافقى يطلق هذه العبارة بصوت حاد. وقلت، وأنا أرتج:

– ماذا جرى يا سيدى؟!

– هناك انهيار أرضى على الطريق، ولا بد أن نلزم جانب الحذر لكيلا تجرفنا الصخور إلى قاع الوادى.

قلت فى سرى: يا لطيف، يا لطيف. وسألته:

- هل هذا هو الانهيار الأرضى؟!

- نعم، ألم تسمع عنه؟

- على العكس، لقد ظللت سنوات طويلة محررا للأخبار الخارجية، وكتبت أخبارا كثيرة عن الانهيارات الأرضية وضحاياها فى باكستان والهند، وكان تصورى أن الانهيار الأرضى هو هبوط جزء من التربة المستوية.

- الانهيار الأرضى هو - كما ترى - سقوط جزء من تربة مرتفعة، ويتسبب فيه تشقق أرض الهضبة بتأثير المطر الغزير وعوامل التعرية الأخرى، فتسقط القطع المتشققة بما عليها من الأشجار، إذا كانت عليها أشجار.

- الآن أتصور كيف يسقط ضحايا هذه الانهيارات.

- يموت بعض الناس على الطرق إذا تصادف حدوث الانهيار الأرضى وهم يمرون تحته، وغالبا تسقط الأرض المنهارة على قرى فى قاع الوادى، أو على الفلاحين ورعاة الماشية.

وبينما أستمع بانتباه إلى كلمات مرافقى كنت ألتقط ما أستطيع من صور تعبر عما يقول.

- لكن لماذا لا تقيمون منتجعات هنا؟

طرحت هذا السؤال على الأستاذ شفيق، وأنا أتأمل الأشجار والغابات فوق الطريق، وتحت الطريق، ونحن بينها، وكذلك وأنا أرى العمال المكلفين برفع الانهيارات الأرضية، وإصلاح ما أفسدت.

قال:

- أى منتجع يقام هنا سيكون أفضل منتجع فى العالم. نحن الآن فى أغسطس، وعندنا قمم جبال عليها جليد مثل جليد يناير فى أوروبا. وهناك منتجع صغير قريب من إسلام اباد يرتاده بعض الأجانب والباكستانيين. وعلى كل حال، إقامة هذه المنتجعات مكلفة جدا، فهى تحتاج إلى استثمارات باهظة، وتحتاج أيضا إلى صبر إلى أن يعرف أثريا العالم الطريق إليها.

والحقيقة أن النزاع مع الهند على كشمير لا يعطى المستثمرين أو السائحين الإحساس بالأمان.

- انتبه من فضلك!!

دوت العبارة فى أذنى، وكان مرافقى هو قائلها، وقد وجهها إلى السائق، حين رأى سيارة تظهر فى منحنى خطير على الطريق.

نسيت أن أقول لك إن الطريق ضيق جدا، لا يسع أكثر من سيارتين صغيرتين، وهو باق على هذا الحال من الضيق منذ شقه جيش الاحتلال البريطانى، قبل سبعين سنة أو يزيد، لخدمة معسكرات قواته.

ولكى يريح مرافقى أعصابى التى شعر بأنها بدأت تتوتر فعلا، قال إن السائق مختار بعناية، وإنه واحد من عدد قليل من السائقين فى وزارة الخارجية الذين يعرفون الطريق إلى كشمير، وبإمكانهم قطعه بأمان.

ويضاف إلى ذلك أنه ينام - كما يقول محدثى - وقتا كافيا قبل

الرحلة التى ليس بمقدور أى سائق القيام بها دون سابق إخطار، فأى حادث على هذا الطريق يعنى هلاكا محققا.

سألت:

- كم المسافة؟

- ١٤٠ كيلومترا.

- فى كم ساعة نقطعها؟

- حوالى ٤ ساعات.

- أليس هناك طريق آخر؟

- هناك طريق بعيد، ولكن إذا سرنا عليه فكيف يتسنى لك رؤية طبيعة هذا الجزء من باكستان، وكذلك طبيعة كشمير؟!

وفى ذلك الوقت كنا قد أصبحنا على مشارف حدود الإقليم، أى باق من الزمن ساعة ونصف الساعة لنصل إلى مظفر اباد.

وكنت منهمكا فى التقاط الصور.

***

ها نحن نترك الهضاب مؤقتا، ونصل إلى مسافة مستوية من الطريق على نهر جِهلوم (بكسر الجيم وخطف الواو) الذى يصب فيه نهران آخران ينبعان من كشمير.

الحمد لله! الحمد لله!

ماء النهر يجرى فى قاعه، والمسافة بين سطح الماء والطريق تصل

إلى ٢٠ مترا أو تزيد، وفوقنا مسافة أخرى من الأرض تصل إلى ١٠ أمتار أو تزيد.

قال مرافقي:

- النهر ليس في حالة فيضان الآن. منذ سنتين هطلت سيول غزيرة فوق كشمير فامتلأ النهر عن آخره، وغطت المياه هذا الطريق، بل ارتفعت إلى الحافة التي فوقنا. وراح ضحية هذا الفيضان عدد كبير من سكان القرى التي تراها على المنحدرات.

- لماذا لم يفر الناس أمام الماء؟

- النهر يجرى كالسيارة، كما ترى. وقد مات البعض وهم يحاولون أخذ ممتلكاتهم الثمينة من البيوت التي تغرق، ومات آخرون وهم نيام.

قلت في نفسي: يا ستار.

وفجأة تحدث السائق مع المرافق، فقال الأخير:

- يبدو أن حظا عاثرا يواجهنا.

- ماذا حدث؟

واضح أن أمطارا غزيرة سقطت أمس، أو قبل ذلك، ودمرت جزءا من الطريق.

نظرت فإذا معدات وعمال ينتشرون في مسافة طويلة. ولما اقترب السائق من الانهيار أخذ يسير الهوينى، فهناك أوحال يمكن أن تنزلق عليها السيارة فتسقط في جوف النهر.

وسارت السيارة على الطريق كطفل، أكثر من عشرين كيلومترا.

***

ها نحن أخيرا فى مظفر اباد بعد أن استبد بنا الإعياء من سفر مخيف ٥ ساعات. وقد استعد الكشميريون لاستقبالنا بالغداء والشاى.

نزلنا فى نادى الشباب، وفيه التقيت برئيس كشمير المنتخب ٥ مرات محمد إبراهيم، وهو مناضل قديم من أجل تحرير كشمير، وقد تقاعد أخيرا بعد أن تقدمت به السن.

وفى نادى الشباب شعرت بين أهل كشمير بأننى موجود فى الشطر الآخر من مدينة بسوهاج، والسبب فى ذلك هو التوافق المذهل فى العادات والتقاليد، بل فى كل شىء: فى الشكل والمضمون، والمظهر والجوهر.

وتحدثت أيضا مع ابن رئيس كشمير، وهو عضو برلمانها الذى يضم ٤٨ مقعدا، وزرت المستشفى العسكرى فى مظفر اباد الذى يعالج فيه ضحايا الاشتباكات على الحدود بين الشطرين: الشطر المحرر، والشطر الخاضع لسيطرة الهند منذ تقسيم شبه الجزيرة الهندية إلى الهند وباكستان عام ١٩٤٧. ويكافح شعب كشمير المسلم لتحرير الجزء الخاضع للهند، ولكن نيودلهى تقمعه أشد القمع، لأنه مصمم على الكفاح الذى تصمم على إحباطه.

وترفض الهند أيضا تطبيق القرارات الصادرة من الأمم المتحدة

بشأن حق تقرير المصير لشعب كشمير. وقد تسبب النزاع إلى اليوم فى ٣ حروب بين الهند وباكستان، وعشرات الألوف من القتلى والجرحى.

نظرت وتألمت!

عدنا فى اليوم التالى إلى إسلام إباد على الطريق الطويل المريح، وكانت عودتى قبل الغروب.

عدت ومعى ذكريات لا تنسى عن كشمير وشعبها، ومعى ايضا ٧٢ صورة فى فيلمين. وقبل أن أخلد إلى الراحة ذهبت إلى معمل للصور لتحميض وطبع الفيلمين.

ولما عدت إلى المعمل صباح اليوم التالى ناولنى الرجل مظروفا به الصور التى طبعها، ثم قال:

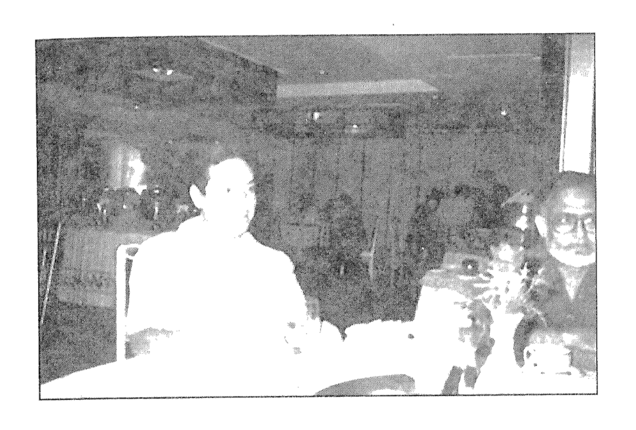
- مستر محمد، أحد الفيلمين محروق!

وأخرجه من المظروف ورفعه عاليا، وهو يقول:

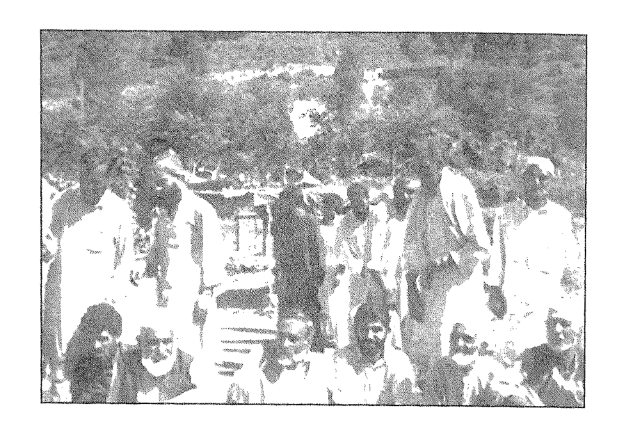
- انظر.

نظرت وتألمت.

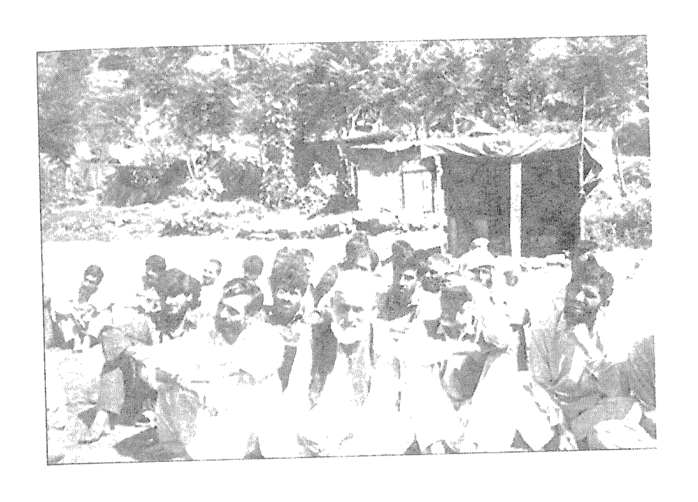
وبسرعة فتحت المظروف الذى به الصور، فإذا الفيلم المحروق هو الفيلم الذى التقطته فى الطريق إلى كشمير.



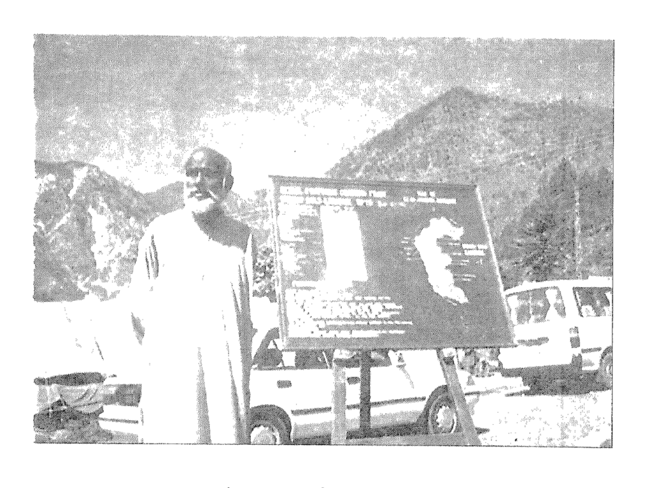
شفيق هاشمي مرافقي في رحلة كشمير، والمستشار الإعلامي المصري في باكستان ـ وقت الرحلة ـ أحمد حسين... اجتمعنا على غداء باكستاني في فندق كبير بإسلام اباد



علم اللاجئون الكشميريون بوصولي فجاءوا إلى المكان المعد للقاء...



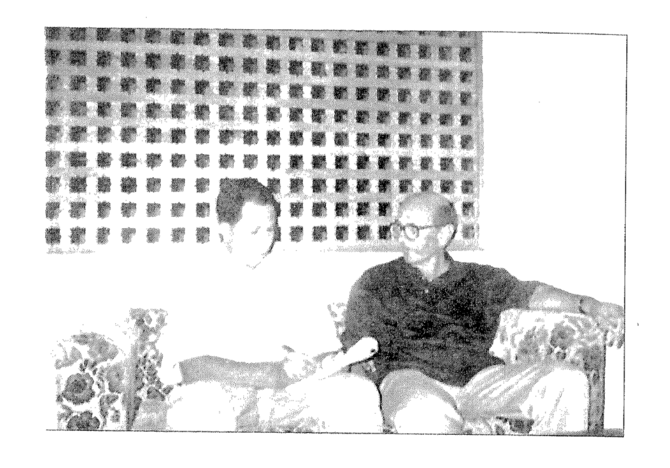
... وجلسوا أمامي. ووراءهم خيامهم وبيوتهم الخشبية المعبرة عن بؤس حالهم برغم سحر الطبيعة من حولهم...



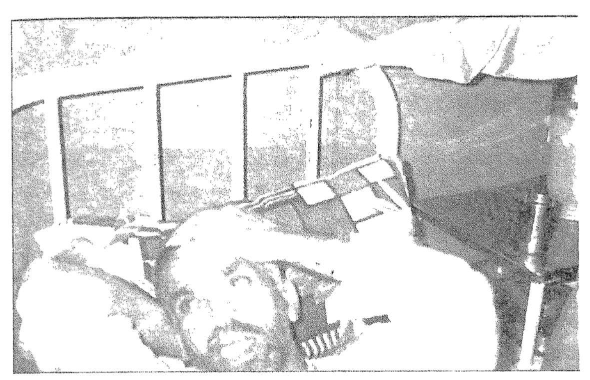
... واستمعت إلى شرح عن الأحوال، وسألتهم عما لاقوه تحت السيطرة الهندية قبل أن يعبروا الحدود... وأجابوني...



محمد إبراهيم رئيس "أزاد كشمير" وقت زيارتى يقول: لم أكن أتصور أن "الأهرام" ستأتى إلينا فى عقر دارنا البعيدة... شكرا لكم

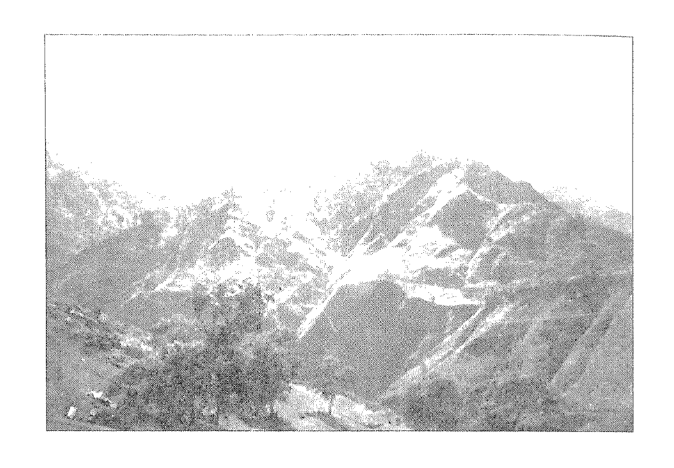


ابن رئيس كشمير، وعضو برلمانها، يقول: جميع أبناء كشمير مستعدون للموت دفاعا عن استقلالها، ولكن سلطات إسلام اباد لا تعطينا حرية الحركة كاملة

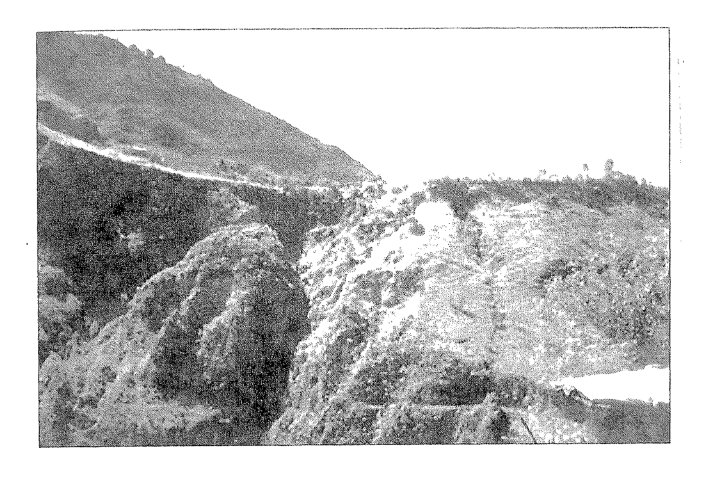




المصابون فى الاشتباكات على الخط الفاصل بين شطرى كشمير.. كبار وصغار وأطفال ونساء أيضا...
العنف الهندى على الجانب الآخر من الحدود أشد وأقسى...



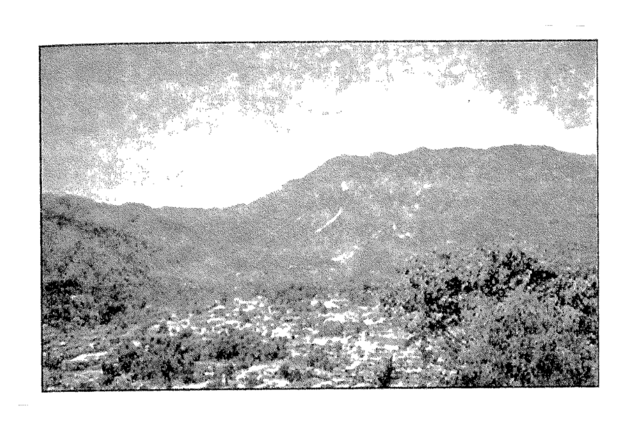
هضاب كشمير.. كل واحدة منها تصلح منتجعا صيفيا عالميا فهى مزودة بجهاز تكييف طبيعى هائل وسط المروج والأشجار



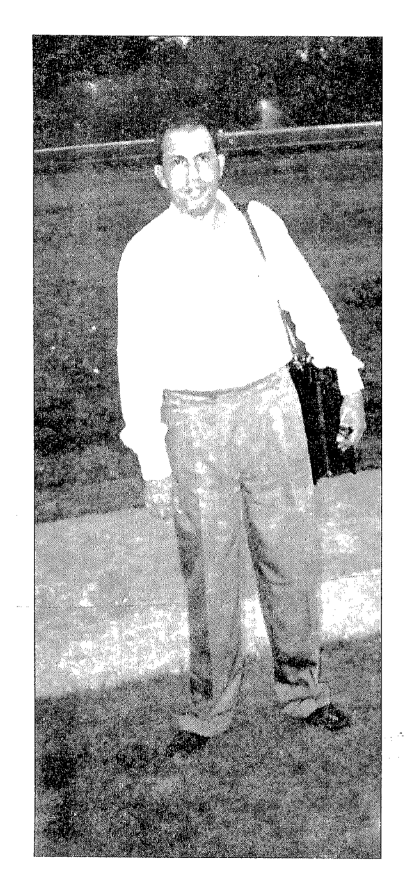
أول مرة أعرف بالضبط ماذا يعنى الانهيار الأرضى... جزء من الهضبة يتشقق وينفصل بتأثير الأمطار وعوامل التعرية الأخرى ثم يسقط... تماما كما يحدث فى هضبة المقطم بالقاهرة



فى هذا المركز الشبابى الاجتماعى بمدينة مظفر اباد عاصمة كشمير الباكستانية قضيت ليلة وخالجنى شعور بأنها الشطر الآخر من مدينة فى سوهاج



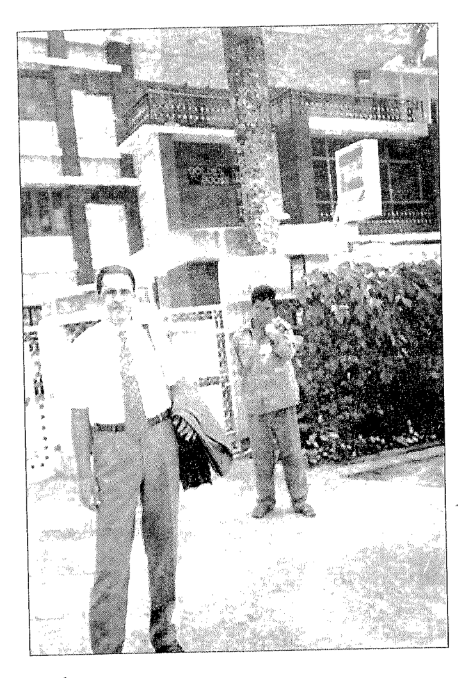
مدينة مظفر اباد فى صورة التقطتها من أعلى الهضبة بعد جولة بين الحصون القديمة والجداول والأنهار الصغيرة... حين تكون فى الوادى أنت فى الصيف، وعلى الهضبة أنت قرب الشتاء



فى الحديقة العامة بلاهور خلال جولة بالمدينة انتظارا لاقتراب موعد إقلاع الطائرة إلى إسلام اباد...

ذهبت إلى لاهور لمقابلة عاصف أحمد على وزير خارجية باكستان، وكان يقضى فترة نقاهة بقصره الريفى الفسيح بعيدا عن المدينة بـ ٤٠ كيلومترا...

والد عاصف كان سردارًا ـ أى حاكما ـ للمنطقة



فى هذه الفيللا بإسلام اباد قضيت أيامى فى باكستان... منها انطلقت إلى أفغانستان و إلى كشمير، وإليها عدت فى نهاية مهمة صحفية استغرقت عشرة أيام

قالوا عن الرحلات

كلمة واحدة من القلب تُسعد الإنسان...

وتبلغ السعادة مداها إذا كانت هذه الكلمة تعبيرا عن إعجاب بعمل بذل المرء فيه جهدا حقيقيا.

وقد ارتسمت كلمات صادقة كثيرة على صفحات الصحف والمجلات المصرية والعربية، إعجابا بكتابى الأول فى هذه السلسلة وعنوانه «رحلات ابن عبداللاه».

صحيح أن عددا كبيرا ممن علقوا على الكتاب الأول تربطنى بهم مودة الصداقة، ورجلة الزمالة، ولكننى مع ذلك شعرت بأن كلماتهم تقول إن فى الكتاب صدق السرد، وجميل الصنعة.

ولست أريد أكثر من هذا.

فما رأيك أيها القارىء العزيز أن تشاركنى شعورى عبر مقتطفات مما كتب أساتذتى وزملائى، حتى لو كنت قرأت ما كتبوا، أو بعضه من قبل...

فأنا متأكد أنك، بعد أن قرأت هذا الكتاب الذى بين يديك، تريد أن تعرف، أو تعاود معرفة، بعض الصدى.

■ محمد صالح ـ الأهرام:

* * * حين ترحل تترك وراءك أهلا وأحبة. وقبل أن ترحل تشعر بالخوف من ألم الفراق، ومن بعض ما ينتظرك ـ بعيدا عن الأهل والأحباب ـ وكثير منه مجهول.

وقد سرت هذه المشاعر فى نفسى، وعبرت عنها لأمى، وأنا أترك قريتى "الجريدات" وكان عمرى ثلاثة عشر عاما إلى مدينة طهطا، لأقيم وأدرس بها. وقالت أمى:

الإمام الشافعى يقول لك:

سافر تجد عوضا عمن تفارقه

وانصَب فإن لذيذَ العيشِ فى النَصَبِ

العبارات السابقة جاءت فى ختام كتاب [رحلات ابن عبداللاه] الذى هو زميلنا فى الأهرام محمد عبداللاه.. وهو كتاب يطوف فيه ما بين اليابان وأمريكا، مرورا بفلسطين وأفغانستان ولبنان ورومانيا والبنجال حيث صادف ابن عبداللاه الأهوال!؟

أما ما جاء فى المقدمة فيدور حول عنوان الكتاب، وعنه

يقـول المؤلف: إنه اختـاره علـى مثـال كتـاب الرحالة العـربى الأشـهـر ابن بطوطـة وهـو [تحفـة النظار فى غرائب الأمـصار وعجـائب الأسـفار] وقـد كـان دافعـه إلـى ذلـك أنه يشـترك مع ابن بطـوطة فى اسـمـه. فالرحـالة الأكـبر هـو أبو عـبـداللاه محمد ابن عبداللاه!

■ د. مصطفى عبدالغنى ـ الأهرام:

هـذه ليسـت الرحلة الأولى فى تاريخنـا العربى... سبقـتها رحـلات أخـرى كثـيـرة، ربما كـانت أولاها وأشـهـرها رحلة ابن بطوطة، الرحالة المشـهور الذى جاب الدنيـا فى القرن الرابع عـشـر الميلادى، وقـدم لنا صنوفـا من العـجـائب والطرائف والحكم مما لا يمكن حصره... وها هو ابن بطوطة الجديد يحاول أن يفعل ذلك...

ثمـة تشـابه واحـد بين ابن بطوطـة الرحـالة المـعـروف وصاحبنا الرحـالة المصرى الآن، فكلاهما يحمل الاسم نفسه، فبينما الأول شمس الدين أبوعبداللاه، فإن الآخر هو محمد عبداللاه، وهو تشابه يختلف فـيه ــ بعده ــ كل منهما عن الآخر...

ولأن رحلة الأول معروفة منذ ستة قرون، فإن رحلة صاحبنا محمد عبد اللاه فى كتابه الذى صدر أخيرا بعنوان (رحلات ابن عبد اللاه) تحاول أن تكشف آفاقا جديدة، ليس فى العالم العربى والإسلامى فقط، وإنما يجوب بنا صاحبها آفاقا بعيدة من اليابان إلى لبنان، ومن فلسطين إلى أرض الأفغان. وهو حين يصل إلى كل من رومانيا وبلاد البنجال، فإنه لا ينسى بلاد العم سام، حيث يحاول هذا العم ـ غير الطيب ـ أن يعيد تشكيل العالم من جديد.

أهم ما فى رحلته إلى فلسطين هو أن الرحالة الجديد يختار رحلته إليها فى واحدة من أمجد لحظات التاريخ العربى الحديث، إنه يبدأ الزيارة فى فترة الانتفاضة الفلسطينية، ومن ثم فهو يجمح إلى الشعور بالحنين للأرض المغتصبة، والفخر بأبنائنا وأهلنا فى الارض العربية المستعمرة والمغتصبة (المستعمرة ليست المستوطنة، والمغتصبة ليست المحتلة). وبرغم أنه ذهب إلى فلسطين وأولاد الحجارة فى فترة مبكرة من الانتفاضة، وشهد كيف تحولت الأسماء العربية إلى إسرائيلية: اللد أصبح بن جوريون، والقدس أصبحت أورشليم، والشخصيات العربية تحولت إلى شخصيات لا هوية لها ولا جذور فى الأرض

العربيـة. فنحن أمام البـولندى والأمريكـى، ونحن أمـام أسـرة من أوكرانيا جاءت إلى (أرض الميعـاد). ونتسـاءل : أى ميعاد ؟!! فـلا نجد إجـابة، ونحن أمام وجـوه وسـحَن غريبـة لا تمت إلى الأرض المحتلة بصلة مـا، وإلا ماذا جاء بهذا اليـهودى (هل هو يهـودى حـقـا؟) والمسـمى بالفـلاشـا (ما عـلاقـة الفـلاشـا باليهود؟) من أرض إثيوبيا (من أى أرض إلى أى أرض؟).

يتجـول الصحفى الرحـالة المصرى فى بقايا أرضنا العربية، ويتحـدث عمـا يراه، ويظل أكثر مـا يتركـه فى الأذهان أمرين اثنين يلفتان النظر..

أما الأمر الأول فهـو ما يلاحظه من أن اليهود، برغم أنهم خرجوا من سيناء بنصر اكتوبر العظيم فـإن استراتيجيتهم ــ أو لنقل أحلامهم بلغة رومانسية ــ لاتزال ترنو إلى سيناء وتريد العودة إليها ثانية. إن العقل اليهودى يرفض الخروج من سيناء، وإذا كان قد خرج فعلا فهو يرفض فى اللاشعور ذلك، ويطرح الوعى ما يريد على لسانه، فنسمع أحد هؤلاء يقول، وهنا أعيد السؤال:

● ألا تزال لكم فى سيناء أيضـا مطامع وادعاءات؟ ويجىء الصوت بصفاقة:

●● باختـصـار، سيناء أرض يهـودية، وجـميع المدن والقـرى

والأودية بهـا لهـا أسـمـاؤها اليـهـودية، بما فى ذلك مـدينة القـنطرة التـى تقع على الضـفـة التى تتبـعـنا من القـناة. ولو نظرت إلـى الخـريطـة التـى وراءك فسـوف تـدرك ما أقـول.

لم ينـظر رحـالتنا إلـى الخريطـة، وهـو لا ينـظـر إلـى الـسـخـف الـذى يردده الـصـهـايـنـة، ويمضى ليكـمل رحـلـتـه إلـى مـدينة الخليل... إلـى المسـتـعـمرة الجديدة فيـها، ناسيا ان المسـتـعـمرة هـى الاسـم الحقيقـى لما يقال عـنه إنه مسـتوطـنة.

ومهـمـا يكـن، فـإن رحلة ابن عبداللاه إلـى الأرض المحتلة، أو هـذه الرحلات إلـى دول العـالم شـرقـا وغربا تحمل ــ فضلا عن المشاهدات والعـجـائب التـى يسـجلها ــ قـدرا كـبيرا مـن الـوعـى السـياسـى والاجـتماعـى. فـهـى (تحفة) أخرى تختـلف تماما عن "تحـفـة الـنظار فى غـرائب الأمـصـار وعـجـائب الأسـفـار" لابن بطـوطـة الأول.

سعد هجرس - «الجمهورية»:

فـى آخر صيف عـام ١٩٦٧، أى مـنذ واحـد وثلاثين عاما، بدأت أسـفار زميلنا وصـديقـنا محـمد عبداللاه مـسـاعـد رئيس تحرير "الأهرام".

وفى رحلته الأولى لم يكن معه جواز سفر، أو تأشيرة دخول أو خروج.

كان كل ما فى يده سلة من الخوص بها زاد، وكل ما فى جيبه خمسون قرشا هى إجمالى بدل السفر الممنوح له من أسرته، وكان ما فى يده وما فى الجيب يكفيان لمدة أسبوع يعود بعده إلى قريته "الجريدات" ليتزود بسلة جديدة عامرة، ويتقاضى بدل سفر الأسبوع التالى، ويعود أدراجه إلى مدينة طهطا بسيارة أتوبيس متهالكة، ومكدسة بالركاب تترنح على طريق ترابى غيّر ممهد.

تلك كانت بداية أسفار محمد عبداللاه التى أخذته بعد ذلك بعيدا عن الصعيد، بل إلى خارج حدود الوطن كله، إلى بلاد الله الواسعة...

ولكنه يجوب الدنيا ليس بعين الصبى الصعيدى ابن الثالثة عشرة، وإنما بعين الصحفى المحترف الذى يسافر إلى أنحاء العالم، ويسجلُ بالكلمة والصورة كل كبيرة وصغيرة تلتقطها حواسه، لينقل هذه الخبرة إلى القراء.

.... بهذه الغرائب والأحزان والأشجان يقدم الزميل محمد عبداللاه إضافة جديدة مشوقة إلى أدب الرحلات.

■ مظهر أبو عايد ـ «الأيام» السعودية:

حين تجد نفسك ـ إذا كنت صحفيا ـ فى وسط الأحداث الملتهبة، أو فى دوامة ما فى حياة شعب ما، فإن الأمر لا يحتاج منك إلا إلى الرصد والتسجيل والتحليل.

وحين تعايش الحدث والموقف أو تصنعه بنفسك أو تشارك فى صنعه ونقله للقارئ ليطلع عليه بأحاسيسه، وليس بعينه... إن أفلحت فى ذلك فأنت مثل محمد عبداللاه الذى أضاف إلى أدب الرحلات، فجاءت كتاباته مميزة فى هذا اللون من الإبداع.

■ محمود عبد الشكور ـ مجلة «أكتوبر»:

بقدر ما أمتعنا ابن بطوطة الجديد محمد عبداللاه برحلاته شوّقنا إلى أحاديثه مع قادة دول العالم التى أشار إليها فى كتابه "رحلات ابن عبداللاه". وكم تمنيت أن أقرأها مع فصول كتابه. وعلى كل حال يمكنه تدارك الأمر بإصدار هذه الأحاديث فى كتاب.

■■ على النويشى ـ الأهرام المسائى:

ظلموك يا ابن عبداللاه..

ظلموك عندما حبسوك فى قفصك الذهبى... وقالوا عنك: مساعد رئيس التحرير!!

فأنت عندما واتتك الفرصة لكى تغرد وأنت حر، وتحلق بجناحين من الأمل والحب، امتعت معجبيك بمعزوفة من الفن الجميل، والكتابة الأنيقة، والجمل الرشيقة، ترسم كلماتك، وتترسم خطواتك فى بلاد الله وبين خلق الله (!!)

إن كتاب «رحلات ابن عبداللاه» للكاتب الصحفى محمد عبداللاه مساعد رئيس تحرير الأهرام، هو محاولة جديدة لإعادة الاعتبار للفن العربى القديم، أى أدب الرحلات الذى كان رائده الرحالة العربى العظيم «ابن بطوطة» منذ ستمائة عام.

وأدب الرحلات هو الأدب الوحيد الذى تعيش معه فى عالم الأحلام، فى مكان غير المكان، وفى زمان غير الزمان، ويحملك على صفحاته ويطير ويدور بك فى الدنيا فى يوم أو فى يومين تقرأ خلالهما الكتاب.

الكتاب من بدايته إلى نهايته جملة واحدة، ما إن تبدأها

من الغلاف فلن تكتمل إلا بنهايتها على الغلاف الثانى... ولأنها جملة بسيطة وجميلة فستقع فى هواها من أول لحظة!

والكاتب الصحفى محمد عبد اللاه كاتب سياسى بالدرجة الأولى، لكن ما لا يعرفه البعض أيضا هو أنه أديب بارع، فهو قصاص له باع طويل فى الكتابة الأدبية، وظهر ذلك من خلال "حكايات قريته" التى أصدرها من قبل فى مجموعة قصصية عنوانها "حكايات قريتنا". ولذلك فهو يعيش الموضوع أولا، ثم يكتبه بعد أن يكون قد جرى فى عروقه مجرى الدم، فينفعل به، ويعبر عنه، ومع ذلك فهو لم ينسلخ من طبيعة مهنته الصحفية، وهو يبسط الموضوع ويضع له العناوين والمانشيتات. وهو يجذب كل حواسك حين يقول: فى بلد أوروبى وجدت رجلا مرمرقا يقول لى أدعوك إلى بيتى فقد تروق لك زوجتى!

وفى بلد آسيوى قالت لى سيدة: يوم العطلة الأسبوعية يوم أسود فى بيوت كثيرة عندنا لأن أرباب هذه البيوت يقضونه فى بيوت أخرى!

وفى بلد عربى حاولت صاحبة مقهى أن تمنعنى من تناول الشاى فى مقهاها لأنى عربى!

أما اليابان فقد وقع ابن عبداللاه فى هواها من أول نظرة وليس أول مرة، فعشق هذا البلد، وعشق نظامه، وعشق أهله، بكل تقدمهم وتهورهم، بكل ذوقهم وحسن ضيافتهم.

ومع ذلك كان ابن عبداللاه مؤمنا، وهو يحمل قدره على كفه من لحظة ركوبه الطائرة وحتى يقف مرة أخرى على باب بيته الكبير "الأهرام" بعد عودته.

وفى النهاية أجد لسان حاله يقول: إن للعذاب لذة... وإن من يأكل عسل النحل لن يسلم من لدغاته!!!

■■ عبدالناصر عارف ـ الأهرام الاقتصادى:

كم هو شيق وممتع كتاب "رحلات ابن عبداللاه" الذى تناول فيه مؤلفه زياراته لسبع دول كانت من بين الدول التى شملتها رحلاته الخارجية فى الخمسة عشر عاما الماضية. فالمؤلف ـ محمد عبداللاه مساعد رئيس تحرير "الأهرام" ـ انفعل بكل شىء مر به فى هذه الرحلات التى غطى خلالها عددا لا بأس به من الحروب والأزمات.

كانت عيناه تريان وتسجلان جميع مفردات الحكايات

الإنسانية التى رصدها، بالقدر نفسه الذى تريان وتسجلان به الأحداث السياسية والعسكرية... والاقتصادية أيضا.

ففى كتاب ابن عبداللاه ـ أو ابن بطوطة العصرى ـ يظهر جليا أثر قوة الاقتصاد، وأثر ضعفه، على حياة الأمم والشعوب.

زار المؤلف أمريكا ثلاث مرات. وفى زيارته الأخيرة فى ديسمبر ١٩٩٦ وجدها مختلفة. فقد تعمق لدى الأمريكيين الشعور بالقيادة العالمية، بل إنهم بلغوا قمة ثورة الشعور فى هذه الناحية.

وهذا الشعور الجارف بالأهمية الكونية والقيادة العالمية يحركُ الأمريكيين اليوم بقوة، خاصة أنه مصحوب بالإنجازات الاقتصادية الملموسة التى حققها كلينتون فى فترة رئاسته الأولى، والتى قدمت له مقعد الرئاسة على طبق من ذهب فى الفترة الثانية.

أما فى بنجلاديش فالوضع على النقيض. الهزال الاقتصادى يصيب البلاد بموجات تتلوها موجات من الاضطراب والعنف.

وفى رومانيا رصد ابن عبداللاه العلاقة بين الدكتاتورية والاقتصاد. فما إن سقط شاوشيسكو فى رومانيا فى

ديسمبر عام ١٩٨٩ حتى سافر إلى بوخارست لكى يرى ما جرى، وما يجرى... فبسبب الفقر المدقع كان الأجانب يعتدون على أهل البلد باستمرار دون أن يتعرضوا لأى عقاب.

■■ مجلة «الأهرام العربى»:

وضع الزميل محمد عبداللاه خلاصة تجربته مع السفر فى شتى أنحاء العالم فى كتاب شائق عنوانه "رحلات ابن عبداللاه". وقد استطاع بعينه المدربة أن يلتقط الإنسانى والبسيط والخفى فى كل بلد زاره.

■■ مجلة «السياحة»:

بعد أكثر من سبعمائة عام، طلع علينا من يمكن أن يكون ابن بطوطة جديدا. إنه الزميل محمد عبداللاه مساعد رئيس تحرير "الأهرام" صاحب كتاب "رحلات ابن عبداللاه".

المؤلف زار عددا كبيرا من بلاد العالم فى رحلات صحفية، وتابع عددا من أحداثه المهمة فى العشرين سنة الماضية، ورصد انفعالات الناس واتجاهات عواطفهم وسلوكياتهم،

وسجل بالكلمة والصورة والتجربة مشاهداته وملاحظاته فى البلاد التى كتب عنها، ومنها: اليابان وسنغافورة ورومانيا والولايات المتحدة وفلسطين وأفغانستان وبنجلاديش.

المؤلف يقول فى مقدمة كتابه: لعله يكون فى ابن عبداللاه قبس من ابن بطوطة... وقد كان.

■ جريدة «البرلمان»:

ليس من سمع كمن رأى. وليس من رأى فقط كمن رأى وسجل ملاحظاته وعززها بالأرقام والصور من مصادرها الأصلية.

هكذا فعل محمد عبداللاه مساعد رئيس تحرير "الأهرام" فى كتاب جميل وشيق أخرجه إلى النور مع إشراقة شمس العام الجديد ١٩٩٨ عنوانه "رحلات ابن عبداللاه".

فى هذا الكتاب يطوف بك المؤلف فى أركان من الدنيا، متحدثا بأسلوب رشيق خفيف الظل عن أحوال البلاد التى زارها، اقتصاديا، وسياسيا، واجتماعيا، ونفسيا، وعاطفيا... وبرلمانيا أيضا.

ابن عبداللاه فى بلاد الله

المؤلف

■ تخرج فى كلية الإعلام (قسم الصحافة) بجامعة القاهرة عام ١٩٧٧.

■ التحق بمؤسسة «أخبار اليوم» محررا بالقسم الخارجى عام ١٩٧٨.

■ عين عام ١٩٨٢ عضوا بمجلس تحرير جريدة «الأخبار».

■ رأس تحرير الصحيفة الاقتصادية الأسبوعية التى تصدر باللغة الانجليزية The Middle East Observer.

■ انضم إلى أسرة تحرير «الأهرام» عام ١٩٨٧.

■ مساعد رئيس تحرير صحيفة «الأهرام» وعضو الدسك المركزى بها.

■ زار ١٧ دولة هى: العراق، وألمانيا (الغربية سابقا)، والولايات المتحدة، ورومانيا، والمجر، وبولندا، ولبنان، واليابان، وفلسطين، وإسرائيل، وأفغانستان، وبنجلاديش، وأوكرانيا، وباكستان، وتركيا وإسبانيا، وغينيا.

■ مر فى رحلاته الخارجية بـ ٧ دول هى: سويسرا، وهولندا، ويوجوسلافيا (السابقة)، وألمانيا (الشرقية سابقا)، وسنغافورة،

واليونان، وفرنسا.

■ صدر له فى عام ١٩٨٥ كتاب «محاكمة صاحبة الجلالة» عن عيوب ونواقص الأداء المهنى فى الصحافة المصرية القومية والحزبية.

■ صدرت له فى عام ١٩٩٥ مجموعة القصص القصيرة «حكايات قريتنا» عن الهيئة العامة لقصور الثقافة.

■ صدر له فى عام ١٩٩٧ الجزء الأول من كتاب «حرفة الصحافة» عن تحرير برقيات وكالات الأنباء للصحف اليومية ومحطات الإذاعة والتليفزيون، وقام بتدريسه لطلاب قسم الإعلام بجامعة عين شمس.

■ صدر له فى عام ١٩٩٨ كتاب «رحلات ابن عبداللاه» وأعادت مكتبة الأسرة (مكتبة الشباب) إصداره فى العام نفسه عن الهيئة المصرية العامة للكتاب.

.مطابع
الهيئة المصرية العامة للكتاب

بدار الكتب ١٩٩٩/١٠٨٢٦

I.S.B.N 977 - 01 -



المعرفة حق لكل مواطن وليس للمعرفة سقف ولاحدود ولاموعد تبدأ عنده أو تنتهى إليه.. هكذا تواصل مكتبة الأسرة عامها السادس وتستمر فى تقديم أزهار المعرفة للجميع. للطفل - للشاب - للأسرة كلها. تجربة مصرية خالصة يعم فيضها ويشع نورها عبر الدنيا ويشهد لها العالم بالخصوصية ومازال الحلم يخطو ويكبر ويتعاظم ومازلت أحلم بكتاب لكل مواطن ومكتب لكل أسرة... وأنى لأرى ثمار هذه التجربة يانعة مزدهرة تشهد بأن مصر كانت ومازالت وستظل وطن الفكر المتحرر والفن المبد والحضارة المتجددة.

سوزان مبارك



مكتبة الأسرة

مهرجان القراءة للجميع 1999

١٢٥ قرشاً